يسوع
المسيح شاهد

يسوع المسيح شاهد

الاب: يوحنا عيسى

2007

- اسم المؤلف: الاب يوحنا عيسى
- اسم الكتاب: يسوع المسيح شاهد
- التصميم والاخراج الفني: كوثر نجيب
- تصميم الغلاف: كَوران عبدالجبار يلدا
- الناشر: مكتب الاستاذ "سركيس اغاجان"
- الطبعة الاولى: 2007
- عدد النسخ: 1000
- المطبعة: بيريفان
- رقم الايداع في مكتبة المديرية العامة للثقافة والفنون/ اربيل (513)، لسنة 2007.

شكر وتقدير

اقدم شكري الجزيل الى الاستاذ "سركيس اغاجان" لتحمله نفقات طبع كتابي المعنون (يسوع المسيح شاهد)، ادامه الله خدمة للثقافة والمثقفين.

المؤلف

إليك هذا الكتاب

إليك هذا الكتاب، أيّها القارئ العزيز.

إن هذا الكتاب إن هو إلا سلسلة من المقالات التي كتبتها في مجلتي الفكر المسيحي ونجم المشرق. ويدور محورها حول شخص يسوع المسيح، هـــذا الإنسان الذي جسّد الله في حياته كما في تعليمه.

فقد كان يسوع إنساناً حقاً ولكنّه كان مختلفاً عنّا في فكره وقلبه وسلوكه.

ففي حياته، كما في تعليمه، لا نجد أثراً لا للحسد والغيـــرة، لا للبغضـــاء والعداء، ولا للعنف والقوة. على العكس، هناك تسام وتعـــال فـــي حيـــاته، ودعوة، في تعليمه إلى الترفّع والارتقاء إلى التشبّه بالله. أوَلم يقل أحد الآباء: "صار الله إنساناً كي يصبح الإنسان إلهاً".

ترى أوَلا يستحق هذا الإنسان– الإله أن نتبعه وأن نحبّـــه حبّـــاً كـــبيراً، عظيماً، قوياً وشديداً؟

ولذا كان هذا الكتاب!

يسوع المسيح شاهد وشهيد

من هو الشاهد ومن هو الشهيد:

الشاهد هو من أخبر بما شهد سواء كان ما شـــهده حادثـــاً، أم حالـــة، أو قضية، أم مبدأ، أم شخصاً، فالشاهد، إذن، ليس من عاين حسب، بل من نقل بأمانة ما شهده فشهد له. ولابدّ من توفر هذين الشـــرطين الأساســـيين فـــي الشاهد. وليس المقصود بالمشاهدة هنا الرؤية الحية لموضوع مادي حســـب، بل أيضاً الرؤية الإيمانية لموضوع إيماني (مبدأ، قضية، شخص رآه بعيـــن الرؤية الإيمانية) فيشهد له بكلامه ويستشهد من أجله بعد أن آمن به والتزمه. هذا هو النوع الأول من الشهادة. أي الشهادة بالكلام.

ولكنّ مالا يُطلب من شاهد قد يطلب شاهد آخر. مثل إنكـــار مـــا شـــهده ويشهد له، بالتلويح أو بالوعد أو الوعيد أو الإكـــراه، أو التهديـــد والتعـــذيب والقتل والصلب والرجم حتّى الموت. وإذا ما أدى الأمر بشاهد ما إلى إنكار ما يشهد له تحت وطأة هذه الضغوط، يظل القسم الآخر فـــي أمـــانته حتّـــى النهاية، إذ يبقى الموضوع الذي يشهد له أقوى من أيّ اضطهاد أو عـــذاب. وهكذا يضحي الشاهد شهيداً، ويكون الشهيد ذلك الشاهد بالدم على ما شـــهده وبذلك يضيف شهادة أخرى على شهادته الأولى ألا وهي شهادة الدم وهـــي ليست بمعزل عن الشهادة الأولى، وإنما تعبيراً أميناً ونتيجة منطقية لشـــهادته الأولى، أي شهادة الكلام، هكذا كان الشهود والشهداء في كلّ الأديان وفي كلّ زمان ومكان. وبين هاتين الشهادتين، هناك شهادة أخرى ألا وهـــي شهـــادة الحياة، أي العيش بمقتضى ما شهده المرء ويشهد له من مبادئ وقناعات.

يسوع المسيح الشاهد والشهيد:

بعد هذا التعريف المقتضب عن الشاهد والشهيد. بوسعنا أن نتساءل ما إذا كان يسوع المسيح شاهداً وشهيداً ولتبيان ذلك لابد لنا من العودة إلى الإنجيل.

في الإنجيل نجد التأكيد الدائم على أن يسوع المسيح هو مرسل من الله. بيد أن هذا (الرسول) ليس كسائر الرسل والأنبياء، إنه الرسول الابن، لذلك فهو وحده القادر على أن يكون شاهداً حقاً لله وعلى الله، لحضوره لديه: "في البدء كان الكلمة والكلمة كان لدى الله والكلمة هو الله" (يو 1: 1). ولقد جاء هذا الابن لكيما يشهد لله: "ما من أحد رأى الله الابن الواحد الذي في حضن الأب هو الذي أخبر عنه" (يو 1: 18).

لقد شهد لأبوّة الله. أي لمحبّته وعطفه وحنانه ورحمته. وبذلك أكمل المسيح ما كان ناقصاً في النظرة إلى الله وفي مفهوم المحبّة. فهو لم يؤكد على وجود الله حسب، بل أكّد أيضاً على أبوّته الشاملة للبشر التي تحتوي ضمنياً على فكرة الأخوّة الشاملة. وهذا أمر جديد إذا ما قارناه بمعطيات العهد القديم. كما أكّد ليس فقط على المحبّة البشرية، وإنما على المحبّة الإلهية أيضاً. مضيفاً بذلك بعداً إلهياً إلى ما في طبيعة الإنسان، وبالفعل ذاته أبطل هيمنة القوانين والشرائع التي كانت تفرض على الإنسان من الخارج.

وقد شهد يسوع المسيح لهذا الإله الأب في أقواله وأعماله. ولذلك كان بإمكانه أن يقول لفيليبس: "من رآني فقد رأى الأب". كما إنه شهد له في الأمثال العديدة التي ضربها وفي مواقفه وتصرفاته تجاه كلّ الناس. ولاسيّما الخطأة، أولئك الذين ردّ إليهم الاعتبار. ولقد كانت هذه المواقف والتصرفات سبباً لاستياء البعض منه وتذمرهم عليه، ومنهم الفرّيسيّون الذين دعوا إلى

مقاطعته. أما هو فعوض أن يستسلم ويرضخ. فقد دافع عن موقفه في الأمثال العديدة التي ضربها مبرراً موقفه هذا بموقف الله الأب المحبّ، الرحوم، الغفور، الرؤوف. وهكذا بدأ صراع مرير وطويل بين يسوع ومناوئيه. ولقد أحسّ يسوع بخطر المؤامرة ولكنّه بقي منطقياً مع ذاته، إذ شاء تحمل كلّ النتائج المترتبة على مواقفه وتصرفاته.

كما شهد يسوع "لملكوت الله" أو "ملكوت السماوات" على حد تعبير الإنجيليين الأربعة جاعلاً منه منهاج حياته. وما "ملكوت الله" بحصر المعنى سوى هذا النظام الجديد الذي ينبثق من مشيئة الله ويرسو على قيم الأخوّة والمساواة والكرامة والحبّ والحقّ. ويملك فيه الله على القلوب، وتزول فيه كلّ الفوارق بين البشر، وكلّ الحواجز المقامة بين القوميات والشعوب والأمم، بين اليهود والوثنيين، الرجال والنساء، الأقوياء والضعفاء، الأغنياء والفقراء، السادة والعبيد. لذلك دعا يسوع إلى تحرير الإنسان من كلّ الاستلابات والقيود والضغوط.

ولكنّ ذلك لم يَرُق لأصحاب السلطة الدينية. أمثال الصدّوقيين ورؤساء الكهنة والكتبة، إذ كان هذا يعني زوال سلطتهم ونفوذهم على الشعب. فرأوا في يسوع خطراً يهدد مؤسستهم الدينية بالزوال، قولاً وفعلاً، فسارعوا إلى التخلص منه. ومن اجل تحقيق مآربهم لجأوا إلى السلطة المدنية آنذاك، وهي السلطة الرومانية ممثَّلة بالحاكم الروماني بنطيوس بيلاطس فبعد أن جرت ليسوع محاكمة أمام المجمع اليهودي المتكون من مجلس الشيوخ والأحبار والكتبة، جرت محاكمة أخرى أمام السلطة المدنية حيث وجه اليهود تهماً سياسية كإفساد الأمة وتحريض الناس على الامتناع عن إعطاء الجزية

لقيصر وإعلان نفسه ملكاً. (لو 23: 3). وهكذا ينفذ حكم الإعدام بيسوع من قبل اليهود وبموافقة السلطة الرومانية، تهم باطلة، ولاشكّ، ذلك أن المسيح لم يضع ذاته على الصعيد السياسي أبداً، وإنما على صعيد رسالته التي تلخّصت بنشر ملكوت الله بين الناس. تلك قضيته الأساسية وما عداها ثانوي كدفع الجزية الذي يعتبره قيصر جوهرياً. وهكذا أدت شهادة الكلام والحياة إلى شهادة الدم.

التلاميذ شهود وشهداء:

ولكن ما أن يقيمه الله من بين الأموات حتّى يغدو تلاميذه شهوداً وشهداء له وعلى غراره. وبذلك نقل التلاميذ التركيز من الشهادة لله ولملكوته (وهي الشهادة المركزية في الإنجيل) إلى الشهادة للمسيح نفسه. ولكن الأمر سيان، إذ أن الشهادة للقائم من بين الأموات هي وجه آخر لإعلان ملكوت الله . فلقد شعر الرسل، ولاسيّما بعد قيامة يسوع من بين الأموات، بوجوب إعطاء الشهادة عن يسوع المسيح وحملها إلى العالم. فولدت الكنيسة الأولى من هذه الجماعة الأخوية التي آمنت بيسوع المسيح رباً ومخلّصا.

وهنا أيضاً تصدى البعض لهذه الشهادة فرفضوها، واضطهدوا الرسل والجماعة المسيحية الأولى وعذبوهم صلباً ورجماً وضرباً إلى حد الموت، ولكنّهم حسبوا أنفسهم سعداء لأن يموتوا مثل يسوع ومن أجل أسم يسوع، سعداء لأن يقاسموا مصير الأنبياء. وهكذا أعطت الكنيسة أول شهيد لها، اسطيفانوس، وأعقبه آخرون كثيرون ولكي نطلع على ما قاسه الرسل في سبيل شهادتهم، لنعد قراءة رسالة بولس الثانية إلى أهل قورنثية حيث يضطر إلى سرد ما احتمله من أجل أسم يسوع: "وأنا أفوقهم: أفوقهم في المشقّات،

أفوقهم في دخول السجون، أفوقهم كثيراً جداً في تحمّل الجلد، أشرفت على الموت مراراً، جلدني اليهود خمس مرات أربعين جلدة إلا واحدة، ضربت بالعصي ثلاث مرات".

لقد حمل المسيحيون هذا الشعور دوماً وفي كلّ زمان ومكان بضرورة الشهادة للمسيح في وسط العالم الذي يعيشون فيه، بكلامهم وحياتهم، فيعرّفوا الناس به ليؤمنوا هم أيضاً وينالوا الخلاص. وتتّخذ هذه الشهادة قبل كلّ شيء طابع الحياة المعاشة في الإيمان الصادق المنفتح، والمحبّة والأخوّة والصداقة والصدق والإخلاص والأمانة من خلال علاقاتهم مع بعضهم البعض ومع الآخرين. كما تتخذ الكلمة أيضاً مكانتها الكبرى في إبلاغ الرسالة.

إن هاتين الشهادتين، أي شهادة الكلام والحياة، ضروريتان، وتكمّل الواحدة الأخرى. ولاسيّما شهادة الحياة التي من دونها لا يمكن للعالم أن يصدق المؤمنين بالمسيح. نظرة سريعة إلى تاريخ الكنيسة تكفي لكيما نرى كم أن الاضطهادات انهالت على الكنيسة، شرقاً وغرباً، وذهب ضحيتها كثير من المسيحيين، فلوحقوا وطردوا وعذبوا، وعن هؤلاء يقول الطقس الكلداني في صلاة يوم الأربعاء: لم تهابوا، أيّها الشهداء، لا من النار ولا من سيوف الحكام المخيفة. لأنكم متوشحون بمحبّة المسيح وقد هزأتم بكلّ العذابات" وأما سبب هذه الجرأة، فلأن إيمانهم ومحبّتهم للمسيح كانا يسندانهم بقوتهما في خضم هذه الاضطهادات والعذابات، وكانا قد أصبحا جزءا لا ينفصل من كيانهم وحياتهم.

نحن شهود وشهداء المسيح:

وكما كان الرسل والجماعة المسيحية الأولى، ومن ثم المسيحيون عبر التاريخ، شهوداً وشهداء للمسيح. هكذا نحن أيضاً. صحيح أننا لم نشاهد يسوع المسيح شخصياً ولكنّ شهادتنا تستند على شهادة الرسل شهود عيان الكلمة والعاملين لها (لو 1: 2).

أما أداء هذه الشهادة فليس عملاً اختيارياً، وإنما هو حقّ وواجب على كلّ المؤمنين ويشكّل جزءاً من هويتهم المسيحية. فالمسيحي ليس من يصوم ويصلي فقط. كلّ الشعوب تصلي وتصوم. المسيحي من كان شاهداً وشهيداً للمسيح، أي مبشراً وواعظاً ومعلّماً بتعاليمه، بعد أن تكون قد أنارت معرفته وحياته هو نفسه. وكلّما ازدادت هذه المعرفة، ازداد التعلّق بالمسيح وسادت بين المسيح والمؤمن به علاقة قوية وحميمة لا يمكن لأيّة قوة في العالم أن تزعزعها.

وأما هذه الشهادة فهي على أنواع ثلاثة:

الشهادة بالحياة، أي الشهادة التي تتجسد فعلياً وعملياً في المواقف والتصرفات والأحكام والأفعال والأعمال، بكلمة، تلك التي تنعكس في السلوكية كلّها. وهكذا يكون المسيحيون شهود المسيح، شهود قيامته من بين الأموات، أي شهود انتصار الحياة على الباطل. وهكذا ينبذ المسيحيون في حياتهم الكذب والرياء والخداع والحقد والكراهية والخيانة، ويعيشون في الصدق والإخلاص والمحبّة. وهذه الشهادة هي أصدق وابلغ من ألف كلام أو مقال أو كتاب.

الشهادة الثانية هي شهادة الكلام. وتبتدئ بالإجابة إلى أسئلة أولئك الذين يسألوننا عن إيماننا بصورة صحيحة . لذا على المسيحي أن يتسلّح بالثقافة

لئلا يبدو ضعيفاً وعاجزاً. كما أن قناعاته ينبغي أن تبدو قادرة على تعبير الواقع وإنارة تصوّرات الآخرين ومفاهيمهم. كما تشمل استخدام الوسائل الإعلامية الحديثة، مثلاً، وكافة تقنيات الاتصال (الصحافة، النشر، الوسائل المسموعة والمرئية..) لإيصال البشرى الإنجيلية. وهناك المشاركة الفعلية أيضاً والمباشرة في أنشطة التثقيف المسيحي والتنشئة الدينية وتهيئة الموعوظين.. والمساهمة في خدمة الكنائس الأخرى عن طريق الدعوات الكهنوتية والرهبانية والعلمانية المختصة.

أما النوع الثالث فهو الشهادة بالدم، والمقصود به الاستعداد لتحمل الضيق أو الاضطهاد، وحتّى الموت، إذا أقتضى الأمر، في سبيل الإيمان بالمسيح، كالشهداء الذين بذروا الحياة بدمائهم. لأن المسيحي ليس من علّم وعاش وحسب، وإنما من تألم أيضاً من أجل المسيح. ولكنّي أتجاوز ذلك فأقول: ليس الشهادة قبول الموت الطبيعي في سبيل المسيح، حسب، بل هي الموت اليومي والدائم أيضاً.. عن النفس، عن الخطيئة، عن الأنانية، عن الكبرياء، عن الاستعلاء، عن الاستغلال، عن الجشع، عن الطمع. إنها النضال أيضاً من أجل الحقّ والخير والعدالة للمظلوم والفقير وضحايا القمع والعنصرية. فإذا ما أقترن ذلك كلّه باسم يسوع وإنجيله، فهو، بالنسبة إلى المؤمن بالمسيح– لاسيّما إذا أوصل هذا النضال صاحبه إلى تحمل الأذى والقمع، أو الموت، في جسمه ونفسه– شهادة واستشهاد حقّ.

الإيمان بيسوع المسيح ماذا يعني؟

الإنسان المعاصر بعد أن سئم من وجود الله في سماء عالية لا شأن له مع الإنسان والأرض، وبعد أن ملّ وضجر من الحديث عنه، تخلّى عنه أخيراً. ماذا يهمه وجود إله يعيش بذاته ولذاته. إنه بحاجة إلى قوة تفجر ثورة داخل الإنسان والمجتمعات لتغيير البنى والأنظمة القديمة، بحاجة إلى شخص محرّر، يحرّر الإنسان من الاستعباد والظلم ويهبه حريته ليعيش حياة إنسانية كريمة. بإيجاز، إنه بحاجة إلى إله يحرره ويهبه الثقة بنفسه، لا إله يكرّس حالة الظلم والاستعباد، بحاجة إلى إله يحقّق أمانيه في العدل والحرية ويجسد تطلّعاته وطموحاته.

هذا الإله المنتظر تجلى للبشرية بيسوع المسيح.

أجل إن هذا الرجل الذي ظهر في التاريخ قبل ألفي عام، إنسان قبل سائر الناس، أكول، شريب، محبّ للخطأة والعشّارين والمرضى والفقراء. جاء من العلاء يخبر البشر أن "الله محبّة" في جوهره، وهذه المحبّة هي التي دفعته إلى أن يخلق، ودفعته إلى التأنس لتحرير الإنسان. فصار متجسّداً ومحرّراً.

لقد حارب يسوع مصدر كلّ استعباد للإنسان: الجهل والقدر وحتمية الشريعة والخطيئة وسيطرة المال وذوي الجاه. كما كشف وجه الله الحقيقي المحرّر للإنسان، وشهد على ذلك بدمه على الصليب "شهادة حسنة". وأظن أننا لا نبالغ إذا قلنا أن خلاصة الأناجيل هي هذه الدعوة المستمرة إلى التحرير التي ختمت بالرفض وتكلّلت بانتصار القيامة.

والمسيح الحي، بفضل قيامته من بين الأموات، حاضر اليوم سرياً في قلب التاريخ والعالم والجماعة المسيحية. عبرها يأتي إلى لقاء كلّ إنسان، يتقدّم إليه، كمحرّر وكمخلّص، شرط أن يؤمن به الإنسان.

وإذا ألقينا اليوم نظرة إلى العالم المعاصر نشعر أن العالم بحاجة إلى تحرير حقيقي. ففي العالم اليوم ملايين من البشر يتضورون جوعاً وملايين أخرى محرومة من التقدّم الاجتماعي والسياسي والثقافي لأنه فريسة الاستعباد والاستغلال، ليس في الدول النامية فحسب، بل حتّى في الدول المتقدّمة. وهذه الملايين تنشد العدالة والكرامة الإنسانية باستمرار. إنها في حالة ثورة على واقعها المرير.

والإيمان بالمسيح يعني الوعي الكامل لرسالته التي كانت رسالة تحرير: "روح الرب عليَّ، لأنه مسحني لأبشر المساكين، وأرسلني لأنادي للمأسورين بالتخلية، وللعميان بالبصر، وأطلق المرهقين أحراراً" (لوقا 4: 18-19). وهذا الوعي يقود حتماً إلى رفض وثورة. ثورة لتخليص الإنسان من جميع الاعتقادات الخاطئة التي يحملها في ذاته عن ذاته وعن الله وعن علاقته بالآخرين.

إن المؤمن بالمسيح، مؤمن بالإنسان، بحقه في الكرامة والسيادة والحرية، ومؤمن بأن الإنسان للإنسان أخ لا عبد. لذا فهو لا يتوانى من الكفاح والنضال بكلّ الوسائل والسبل، حتّى بالسلاح إن كان هذا هو الوسيلة الوحيدة لانتزاع الحقّ، ولكنّ شرط أن يبقى أداة تحرير ولا ينقلب أداة انتقام.

هذا الكفاح الذي يقوده المؤمن مع الآخرين عادل بسبب عدالة القضية،

قضية حرية الإنسان، فالمؤمن الذي يناضل في سبيل قضايا العدل والرقي والتحرر، إنما يتوخّى من خلال ذلك تحرير الإنسان من ربقة الاستعباد والاستغلال. وإذا ما أودى هذا الكفاح بحياته يكون شأنه شأن المسيح الذي ضحى وأعطى ذاته من أجل كلّ إنسان وكلّ الإنسان.

وهكذا تكون حياة المؤمن، على حياة ومثال معلّمه، تضحية وبذلاً وعطاء حبّاً بالإنسان وتحريره، خاصة تحرير الإنسان المستعبد روحياً وزمنياً.

أنا لا أفهم الإيمان بيسوع عقيدة أو عملية جبرية ولا مجموعة شرائع وقوانين، وليس الإيمان مجرّد تراث يتناقل أو شيئاً راكداً. الإيمان أبداً اقتحام لمعرفة المجهول، لتحقيق الذات في الجماعة، قبول أو رفض شخص حي في حياتنا هو يسوع المسيح، جاء ليظهر أن الله محبّة وليجسّد هذه المحبّة بين البشر ويعرضها عليهم كوسيلة تحرير بدل خطيئتهم فيضعونها في قلوبهم ويعيشون بمقتضاها. جاء إلى ملاقاة الإنسان فعاش في زمان ومكان معروفين، ولاقاه الجميع إنساناً مثل سائر الناس ما خلا الخطيئة، وبإمكان إنسان اليوم أن يلاقيه في إنجيل وفي جماعة يعيش فيها سرياً وتؤمن به وتثق بكلامه وتعليمه. وباحتكاك الإنسان مع هذه الجماعة ومعه يولد فيه الإيمان. ولا عجب في ذلك، فكما أن الشجرة بحاجة لتحيا وتنمو إلى تربة صالحة، إلى ماء يغذيها وكما أن الطفل بحاجة إلى بيئة تدافع عنه وتحاميه وتعطيه الغذاء، وكذلك الإيمان بحاجة إلى بيئة، تسهر عليه وتغذيه بطعام هو كلمة الله المدوّنة في كتاب هو الكتاب المقدس وخصوصاً في الإنجيل، البشرى السارة.

ففيما تقدَّم نفهم أن الجماعة المسيحية، وإن كانت لا تخلق الإيمان تماماً،

فهي تساهم في خلقه بتقديم يسوع في إنجيل وفي حيـــاة يوميـــة معاشـــة وتضمن له باستمرار البقاء والنمو بفضل الحياة التي توفرها له، ومع ذلـــك يبقى الإيمان مسألة شخصية، إجابة حرة على دعوة المسيح، متى كان المسيح يفجر ثورة داخل الإنسان بتحريره من ضعفه ويحوله إلى خليقة جديدة.

المسيح رجل انفتاح

ما المقصود بالانفتاح؟

الانفتاح بمعناه الحرفي ضد الانغلاق، وبمعناه العميق هو استعداد المرء لقبول الآخر كما هو والاستماع إلى أرائه وأفكاره ووجهات نظره، حتّى وان كان مختلفاً عنه. كما أن الانفتاح يعني أيضاً قبول الخير والحق أيّاً كان مصدرهما، شخصاً أو ديناً أو عقيدة فكرية. فهو إذن "استعداد" للإصغاء والحوار والالتقاء، وهو عكس الرفض المبدئي الجاف. وشروط الحوار هي أن يطرح كلّ طرف رأيه فيحاول الآخر فهمه وتفهمه في جو من الثقة والاحترام المتبادل بعيداً عن التعصب أو التزمت أو الفرض أو الضغط.

إن هذا التحديد ينطبق أيما انطباق على شخص المسيح. فإذا كان ثمة إنسان في التاريخ البشري منفتحاً على الله والناس، فكراً وقلباً وروحاً وعملاً، فهو المسيح. فلقد كان المسيح حقاً رجل الانفتاح الأكبر على الله وعلى الإنسان وعلى الطبيعة.

أن يكون المسيح منفتحاً على الله، تلك بديهية لا تحتاج إلى تبسيط في نطاق هذه المعالجة. فالإنجيل كلّه يعكس هذه العلاقة التي تجعل من الله مركز ومحور حياة المسيح واهتمامه: "طعامي أن أعمل بمشيئة من أرسلني" (متى 4: 34) – "أنا والأب واحد نحن" (يو 17: 10). كما أترك جانباً انفتاح يسوع على الطبيعة التي كانت بالنسبة له بمثابة الكتاب الذي يقرأ فيه جمال أبيه ومحبّته، ومنها استقى صور أمثاله وتعاليمه. فأركز بصورة خاصة على علاقته بالإنسان.

انفتاح المسيح على الإنسان:

لاشكّ أن انفتاح المسيح على الإنسان كان نتيجة طبيعية لمعرفته العميقة بطبيعة الله أبيه، الذي هو أب لجميع الناس أيضاً، وهم به إخوة بالرغم من اختلافهم في الدين، أو المبدأ، أو العقيدة، أو اللون، أو الجنس، أو القومية: "أنتم جميعاً إخوة: "متى 23: 9). بسبب ذلك امتلك المسيح آفاقاً رحبة في الفكر والقلب كالمحبّة الشاملة لكلّ البشر، مبدياً قبوله واحترامه للآخرين، سواء كانوا من اليهود أم من غير اليهود.

فلقد اختار تلاميذه من انتماءات وأمزجة مختلفة، بدءاً من الجذور الجغرافية حيث كان البعض منهم جليليين، والبعض الأخر من اليهودية. كما كانوا مختلفين من حيث الانتماءات الاجتماعية والدينية، بل حتّى السياسية. فكان قسم منهم من العشّارين الخطأة، وآخرون يهوداً أتقياء. وغيرهم ينتمون إلى حركات قومية – سياسية كحركة الغيارى التي كانت تستهدف تحرير البلاد واسترداد استقلالها. كما كان التلاميذ مختلفين في الطبائع أيضاً. فبطرس كان رجلاً وجلاً وإن كان عميق السخاء، بينما يسمي الإنجيل يوحنا ويعقوب ابني الرعد، لما كانا عليه من الاندفاع. وبالرغم من هذه الاختلافات، فلقد أنشأهم المسيح على الوحدة القائمة على الإيمان بالله وبه: "آمنوا بالله وآمنوا بي أيضاً (يو 14: 1). وعلى محبّة بعضهم البعض: "ليحبّ بعضكم بعضاً كما أنا أحببتكم" (يو 13: 34).

إن انفتاح المسيح هذا في اختيار تلاميذه نجده تجاه كلّ الفئات الاجتماعية الأخرى.

فلقد أظهر محبّته الكبيرة للأطفال داعياً الناس إلى التشبّه بهم: "الحق أقول لكم :إن لم تعودوا مثل الأطفال لا تدخلوا ملكوت السماوات" (متى 18: 3). كما أنه لم يفرّق بين الرجل والمرأة، فتحدّث إلى المرأة كما تحدّث إلى الرجل، علناً ومن دون تحذر، كما مع المرأة السامرية عند بئر يعقوب، خلافاً للعادات والتقاليد التي كانت تحظر على الرجال مخاطبة النساء في الأماكن العامة. وشفى المرأة كما شفى الرجل، وغفر خطاياها كما غفر خطايا الرجل.

ولعل أكبر انفتاح للمسيح كان تجاه الخطأة. والخطأة في عُرف ذلك الزمان سُمّوا كذلك إما لردّاءة سيرتهم، أو لامتهانهم وظائف غير شريفة مثل العشّارين، عملاء الحاكمين الدخلاء. فالفرّيسيّون، وهم آنذاك حزب ديني متزمت، كانوا يتجنبون كلّ احتكاك مع هؤلاء الخطأة. وحتّى الاسينيون كانوا يتحاشون مخالطة هؤلاء لئلا يتنجسوا ولكنّ المسيح على العكس احتكّ بهم، ودخل بيوتهم، وتناول طعامهم، ودعاهم إلى التوبة. فقبل البعض دعوته وغيروا حياتهم جذرياً بلقائه، بينما رفض القسم الآخر. والسبب في ذلك أن هذه الدعوة كانت تجيب إلى حاجات وتطلّعات هؤلاء الخطأة، في حين تعاكس أطماع الأغنياء والأقوياء.

إن مخالطة هؤلاء الخطأة والفقراء هي التي كانت في أصل استياء وغضب البعض من المسيح، مثل الفرّيسيّين الذين كانوا يحسبون أنفسهم صديقين، وقد أشاروا إليهم بقطع علاقته بهم ولكنّ المسيح، عوض أن يرضخ لمشيئتهم، راح يدافع عن موقفه بالأمثال، كمثل الابن الشاطر الذي يحكي قصة حبّ الأب السماوي لأولاده الضالين والعائدين. بهذا الحبّ يبرّر المسيح

موقفه من الخطأة. فكما هو حبّ الله الأب لأولاده الضالين، كذلك هو حبّ المسيح للخطأة. الله يشرق شمسه على الأخيار والأشرار.

وما يصحّ لليهودي، يصحّ كذلك بالنسبة إلى غير اليهودي، كالرومان، والكنعانيين، والسامريين. فعلى طلب قائد المئة، وهو روماني وثني، شفى يسوع عبده المدنف (لو 7: 1–10) كما شفى ابنة الكنعانية في أرض صور وصيدا الوثنية.

إننا ندرك ولاشكّ من هذين الشفائين مدى انفتاح المسيح ومدى سعة آفاقه، سيّما وأن مخالطة الوثنيين كانت محظورة على اليهود لظنهم أن "النجاسة الوثنية" تلحق بهم، هم عبدة الإله الواحد، إذا خالطوهم. أما بالنسبة إلى السامريين الذين زارهم المسيح أكثر من مرة والتقى بهم، فالأمر يختلف، إذ كان هؤلاء خليطاً من اليهود والوثنيين، يسود بينهم وبين اليهود في الجنوب عداء قديم مستحكم، وذلك بسببين: الأول سياسي، إذ شقّ أهل الشمال عصا الطاعة على رحبعام ابن سليمان بعد موت أبيه، مكوّنين لهم مملكة في الشمال انضمت إليها معظم القبائل اليهودية. أما السبب الأخر فهو ديني، إذ كان السامريون يقبلون بالتوراة فقط أي بالأسفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدس أي التوراة والمزامير والأنبياء. كما أنهم كانوا قد بنوا هيكلاً على جبل كورازيم منافساً لهيكل أورشليم، والأهم من كلّ هذا إن ديانتهم كانت مزيجاً من اليهودية والوثنية، بعد احتلال الآشوريين هذه المملكة عام 720 ق.م. وإجلاء معظم أهاليها إلى بلاد آشور، واستيطان شعوب أخرى غريبة بدلاً عنها، تلك التي واصلت عبادة آلهتها إلى جانب عبادة الإله الواحد (4 ملوك 17: 24).

إن معرفة هذه الخلفية التاريخية ضرورية لادراك مغزى مثل السامري الصالح. السامري يتحنّن على اليهودي الجريح المطروح في الطريق ناسياً كلّ ما بينه وبين هذا اليهودي من خلاف وعداء ، في حين لم يتحنّن عليه لا الكاهن ولا اللاوي اللّذان مرّا به. وبذلك قدّم لنا المسيح هذا السامري مثالاً لممارسة الرحمة تجاه كلّ الذين هم بحاجة فعليه إلى مساعدتنا بغض النظر عن ديانتهم أو قوميتهم أو جنسهم أو لونهم أو رأيهم أو عقيدتهم.

كما أن الإنجيل يعطي هؤلاء الأعداء الذين كان يزدريهم الشعب اليهودي مثالاً للإيمان والتوبة للشعب اليهودي الذي رفض الإيمان بيسوع المسيح وبالتالي رفض التوبة.

من جانب آخر كان المسيح منفتحاً على الشريعة أيضاً، ولكن يتجاوزها للبلوغ بها إلى كمالها النهائي. فأخذ بروحها وليس بحرفيتها. فأجرى الأشفية يوم السبت، لأن فعل الخير جائز يوم السبت. كما ميّز المسيح بين الشريعة وما أضيف إليها لاحقاً من عادات وتقاليد هي من صنع البشر، نعتها الإنجيل "بتقاليد وعادات الشيوخ".

من كلّ هذا نستنتج أن المسيح كان بحقّ رجل الانفتاح. ولئن كان هذا الانفتاح محصوراً إبان كرازته وتبشيره في منطقة جغرافية محدّدة، فإننا نجد في الإنجيل إشارات صريحة وكثيرة إلى دعوة جميع الناس للدخول في ملكوت الله: "سوف يأتي أناس كثيرون من المشرق والمغرب فيجالسون إبراهيم واسحق ويعقوب على المائدة في ملكوت السماوات" (متى 8: 12). أو كما ورد في مثل الكرامين القتلة حيث يقول المسيح: "فهكذا يصير الآخرون أولين والأولون آخرين" (متى 20: 16). وبعد قيامة المسيح شمل

هذا الانفتاح العالم كلّه بإرساله تلاميذه إلى كلّ الأقوام والشعوب ليحملوا إليهم بشرى الخلاص، بشرى الفرح والسعادة: "اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم" (متى 28: 19).

تلميذ المسيح والانفتاح:

هكذا على غرار سيده، ينبغي على تلميذ المسيح أن يكون رجل الانفتاح. فيكون مستعداً للدخول في الحوار مع الآخرين في جو من الاحترام والثقة. وهذا هو الطريق الوحيد لفهمه وتفهّم آرائهم وأفكارهم وعقائدهم ووجهات نظرهم المختلفة.

إن أسلوب الحوار هذا هو الذي ينبغي أن يتبعه تلميذ المسيح مع الآخرين حيث يطرح كلّ واحد رأيه أو فكره أو عقيدته بحرية وصراحة وثقة، ومن دون جرح المشاعر. الحوار هو الذي يوصل إلى ما هو مشترك لإتباعه ويكشف عن مناطق الاختلاف لدرئها أو لتجاوزها. وإذا كان التركيز قد ذهب سابقاً إلى ما يختلف عليه البشر، فيجب اليوم أن يذهب إلى ما هو مشترك وما يوحّد وليس ما يفرّق. بذلك يحقّق الحوار الغاية المرجوّة منه، فيكون طريقاً إلى تفاهم متبادل وإلى فهم أفضل للغير. والحوار نوعان: حياتي- وذلك بعيش المحبّة والصداقة والتعاون بين الطرفين في معترك الحياة العملية- وعقائدي فكري، وهو الذي يتناول الحقائق والمبادئ.

لا ننكر أن هذا الحوار قد يكون صعباً، وذلك بسبب الجذور التاريخية العميقة وبسبب الأحكام المسبقة والمواقف المعلنة، وتباين اللغة والمفاهيم والطروحات. ومع ذلك فنحن نعتقد بأن هذا الأسلوب ممكن، بل ضروري ومفيد. لذلك ينبغي أن يكون هو البديل عن أسلوب الجدال والمماحكة الذي

طالما ساد في المناقشات حيث يحاول كلّ طرف إبراز صحة ما يذهب إليه واستعراض قوته، مبيناً بطلان رأي الطرف الآخر.

لقد أثبت هذا الأسلوب عقمه وعدم جدواه، بل مضرته، إذ كان السبب في كثير من الانغلاق والتباعد والحقد والكراهية. وإن ما يحفزنا، اليوم، في المضي قدما في هذا الانفتاح وفي إتباع أسلوب الحوار لغة للانفتاح فهو انفتاح العالم على ذاته– وتلك ميّزة من ميّزات عصرنا بالرغم من موجات التعصب التي تبرز هنا وهناك وعلى كافة الأصعدة، السياسية، والدينية، والاجتماعية، ويذهب ضحيتها كلّ يوم العديد من الناس الأبرياء. فإذا كان الانغلاق والتباعد سائدين في الماضي فعلينا اليوم فتح أبوب الحوار والتفاهم.. بين الدول والشعوب وبين مختلف الكنائس والأديان.

* *

المسيح رجل صلاة

منذ القدم صلّى البشر إلى الإله أو الآلهة، في كلّ زمان ومكان، طالبين، ملتمسين، شاكرين، متضرعين، وما يزالون اليوم أيضاً يفعلون، كما صلّى الأفراد أيضاً، أناس عاديون وملوك وأنبياء، مثل موسى وداؤد وسليمان وإبراهيم وصموئيل وعاموس وإيليا وارميا وغيرهم....

في هذا المقال سنقتصر الحديث على يسوع المسيح بصفته رجل الصلاة الأعظم، والذي من صلاته سنستقي أصول صلاتنا.

ولكن لابد لنا، بادئ ذي بدء، أن نحدّد ماهية الصلاة أولاً. ولئن كان من الصعب جداً حصر الصلاة بتحديد. فبوسعنا القول أن الصلاة إن هي إلا حضور الإنسان، كلّ إنسان، فكراً وقلباً، جسداً ونفساً، إلى الله وحضور الله إلى الإنسان. وفي هذا الحضور إصغاء وانتباه واستماع، حيث يدخل الطرفان في حديث وحوار. بيد أن هذا الحضور يفترض المعرفة المسبقة للآخر. ولاسيّما بالنسبة إلى الإنسان، حيث تنجم عن هذه المعرفة علاقة متبادلة، علاقة محبّة وصداقة، وهذه العلاقة تعمقها الصلاة وتطوّرها.

صلاة يسوع:

إذا كانت الصلاة هذا الحضور القوي والعميق، فإن حياة المسيح كانت، ولا شك، كلّها صلاة. وقد عبّر يسوع عن هذا الحضور المتبادل بينه وبين الله بقوله: "ان الأب فيّ واني في الأب" (يو 18: 38). وبسبب هذا الحضور الدائم، كان الله في مركز حياته ورسالته. فبالنسبة إلى يسوع المسيح، الله هو

القيمة المطلقة التي استقطبته، وما عداه ثانوي. بذا كانت الأولوية لله في حياة المسيح ورسالته.

بيد أن إله يسوع المسيح ليس أيّ اله كان، وإنما هو الإله الذي يحيا لـــه وبه ومنه، وهو ابن هذا الإله الأب الذي جاء ليكشف عنه: "ما من أحد رأى الله، الابن الواحد الذي في حضن الأب هو الذي أخبر عنه" (يـــو 1: 18). ولذا يدعوه في كلّ صلواته "أبّا" (بابا) كما يدعو الطفل الصغير أبـــاه، بعيـــن البساطة والثقة. وحتّى صرخته على الصليب التي كانت تحقيقـــاً للمزمـــور "الهي الهي لماذا تركتني" (5: 34. متى 37: 46) كانت مفعمة بالثقة والحبّ البنوي المتألم حتّى الموت.

لقد كان هذا الدعاء، ولاشكّ، تعبيراً عن معرفته بالله، كونه الابن الواحـــد الذي في حضن الأب: "قد أولاني أبي كلّ شيء، فما من أحد يعرف الابن إلا الأب، ولا من أحد يعرف الأب إلا الابن ومن شاء الابن أن يكشف له" (متى 27: 11). وفي لغة الكتاب المقدس لا تعني المعرفة مجرّد معرفة فكرية، وإنما تعنى السلطان على .. أو الخبرة الحميمة بين شخصين متحابين. وهذا المعنى الثاني هو المقصود.

فإلى هذا الإله الأب، صلّى يسوع في المجامع حيث كـــان يـــتردّ د مـــع الشعب ليشترك في الصلاة وقراءة التوراة والمزامير والأنبياء وفي شـــرحها وتطبيقها كما كانت العادة، ذلك أن يسوع كان يعتبر ذاته عضواً في شـــعب: "ودخل المجمع يوم السبت على عادته، وقام ليقرأ فدُفع إليه سفر النبي اشعيا، ففتح السفر فوجد الفقرة التي ورد فيها "روح الرب نازل عليّ لأنه مســـحني وأرسلني لأبشر الفقراء وأبلغ المأسورين إطلاق ســـبيلهم والعميـــان عـــودة

البصر إليهم، وأفرج عن المظلومين وأعلن سنة مرضية لدى الرب" (لو 4: 18). كما تحدّث يسوع إلى الله في الصلاة في البراري: "وكان ذكره يتسع انتشاراً، فتوافدت عليه جموع كبيرة لتسمعه وتشفى من أمراضها. ولكنّه كان يعتزل في البراري للصلاة" (لو 5: 15-16). وكذلك في الجبال حيث كان يمضي ليالي برمتها في الصلاة إلى الله: "وفي تلك الأيام ذهب إلى الجبل ليصلي، فأحيا الليل كلّه في الصلاة لله" (لو 6: 12). وتأتي الصلاة الربية، وهي أعلى نموذج للصلاة، في إنجيل القديس لوقا، على أثر صلاة يسوع نفسه: "وكان يصلي في بعض الأماكن، فلما فرغ قال له أحد التلاميذ: "ربنا، علّمنا أن نصلي، كما علّم يوحنا تلاميذه. فقال لهم إذا صلّيتم فقولوا..." (لو 11: 2).

وإذا كانت هذه النصوص لا تفصح عما كانت تحتويه صلاة يسوع، فإننا نجد، في مواضع أخرى من الإنجيل، ما كان يقوله يسوع في هذه الصلوات التي تتّخذ صيغ مختلفة حسب اختلاف الأوضاع. فهي تارة صلاة حمد: "وفي تلك الساعة اهتز طرباً بنفحة من الروح فقال: "أحمدك يا أبتِ رب السماء والأرض، فقد حجبت هذا عن الحكماء والأذكياء وكشفته للأطفال" (لو 10: 21). وفي إقامته لعازر من بين الأموات قال: "شكراً لك، يا أبتِ لأنك استجبت لي وقد علمتُ أنك تستجيب لي في كلّ حين. ولكنّي قلت هذا من أجل أولئك الناس الذين يحدقون بي لكي يؤمنوا انك أنت أرسلتني" (يو 11: 41-42). وهي طوراً طلب بركة على الخبز: "ثم أخذ الأرغفة السبعة وشكر وكسر، ثم جعل يعطي تلاميذه ليقدّموها إلى الجمع، فقدّموها إليهم. وكان لديهم بعض سمكات صغار، فباركها وأمر بتقديمها أيضاً

فأكلوا حتّى شبعوا" (مر 8: 6-8؛ لو 24: 30-31). وتأتي صلاة يسوع أحياناً بصيغة طلب تأييد له من قبل الأب: "وما أن فاه يسوع بهذا الكلام، حتّى رفع عينيه نحو السماء وقال: "يا ابتِ قد أتت الساعة مجّد ابنك لكي يمجّدك ابنك، فيهب الحياة الأبدية للذين وهبتهم له بما أوليته من سلطان على جميع البشر. والحياة الأبدية هي أن يعرفوك انك أنت الإله الحقّ وحدك ويعرفوا الذي أرسلته: يسوع المسيح" (يو 17: 1-3). وجاء في موضع آخر حول معنى التمجيد الذي يطلبه من الأب: "مجدّتك في الأرض فأتممت العمل الذي وكلته إليّ، فمجّدني الآن يا أبتِ بما كان لي من المجد عندك قبل أن يكون العالم" (يو 17: 4-5). وتأتي أحياناً أخرى بصيغة طلب إنقاذه من الموت وعبور الكأس عنه: "الآن نفسي قلقة، فماذا أقول؟ أأقول: يا أبتِ نجّني من تلك الساعة؟ وما بلغت تلك الساعة إلا من أجل ذلك". وصلّى أيضاً في بستان الزيتون قائلاً: "يا أبتاه، لتبتعد عني هذه الكأس، إن كان يستطاع، ولكن لا كما أنا أشاء، بل كما أنت تشاء" (متى 26: 40). وحين يلفظ يسوع أنفاسه الأخيرة يتوجه إلى أبيه قائلاً: "يا أبتاه في يديك استودع روحي" (لو 23: 46) وكأنه الطفل يغفو بين ذراع أبيه.

بيد أن يسوع لم يصلِّ لنفسه حسب، بل من أجل تلاميذه أيضاً، لكيما يحفظهم الله الأب من الشرير: "لا أسألك أن تخرجهم من العالم بل أن تحفظهم من الشرير، ليسوا من العالم كما إني لست من العالم. إن كلامك حقّ" (يو 17: 3). كما صلّى يسوع من أجل وحدة تلاميذه، وحدة تكون على غرار وحدة الله معه: "ليكونوا واحداً كما نحن واحد" (يو 17: 22)، وذلك دعماً لمصداقية رسالة المسيح نفسها: "ليؤمن العالم بأنك أنت الذي أرسلتني"

(يو 17: 21). كما أنه خصّ خصومه وجلاّديه بآخر صلواته طالباً الغفران لهم: "يا أبتِ اغفر لهم، لأنهم لا يدركون ما يفعلون" (لو 23: 34).

وإذا ما كان يسوع قد تحدّث إلى الله الأب دوماً وفي أوقات وأماكن مختلفة، فقد تحدّث عنه أيضاً إلى الإنسان مراراً وتكراراً، سواء في أقواله أم في أمثاله التي تدور حوله وحول ملكوته. لا بل بوسعنا القول أن هذا الإله الأب هو وراء كلّ قول أو حكمة فاه بها يسوع، ولاسيّما تلك الأقوال التي تبدو صعبة، بل مستحيلة، كدعوته إلى حبّ الأعداء والتسامح والغفران. وفي هذه الأقوال والكلمات كشف لنا يسوع عن وجه جديد لله والإنسان. فبعد أن كان الله يُعتبر خالقاً وسيداً والإنسان عبداً وخادماً له، يمسي الله، مع يسوع، أباً والإنسان ابناً. فيسوع المسيح إذن هو الذي عرّفنا بالله وأدخلنا إلى بيته، بعد أن ظلّت البشرية ردحاً طويلاً من الزمن على عتبة دار الله بمعرفتها وجود آلهة عديدة دون الله الواحد الأحد. وبذلك أعطى المسيح قيمة كبيرة للإنسان، إذن دوراً ومكانة مميّزين في هذا الكون، ليس فقط لكونه عاقلاً، وإنما لكونه ابناً لله.

وبعين الروح التي صلّى بها يسوع المسيح إلى الله الأب، دعا تلاميذه وعلّمهم أن يصلّوا إلى الله بعد أن حذرهم من التظاهر والتفاخر في الصلاة مثل الفريّسيّين، أو الهذر كالوثنيين، ذلك أن الله أباهم يعرف حاجاتهم. وحين طلب إليهم أن يدعوا الله أباهم "أيّها الأب" ويتوجهوا إليه كما يتوجه الأبناء إلى أبيهم، فيعني ذلك ضمناً أن الله يعتبرهم حقاً كذلك (ارميا 31: 20). وكما دعاهم إلى طلب اعتلان ملك الله ومجده في الأرض كما هو في السماء، فقد دعاهم إلى طلب الخبز السماوي والأرضي معاً، والتماس

الغفران من الديون والخطايا منذ الآن، منذ هذه الدنيا، وأن ينقذهم من تجربة الجحود الأخيرة فلا يسمح لهم بالسقوط فيها: "أبانا الذي في السماوات...".

صلاتنا نحن:

صلاتنا لا يمكن إلا أن تكون على غرار صلاة يسوع، سواء كانت صلاة طلب أو حمد أو التماس أو تضرع. ولكن من حقّنا أيضاً، كما كان من حقّ المسيحيين عبر القرون، أن نخلق لأنفسنا صيغ صلوات جديدة وخاصة بنا، سواء كانت مكتوبة أم شفهية. وهكذا نتحدّث إلى الله بمشاعرنا وأحاسيسنا، بلغتنا وتعابيرنا، كي تكون هذه الصلوات صادقة حقاً ومعبرة عن أنفسنا. عن ضعفنا وحاجاتنا وطلباتنا المادية والروحية، كطلب الرحمة والغفران. فالخطر الكبير في الصلوات التي ألفها أولئك الذين سبقونا والتي نتلوها هي أن تنقلب، مهما كانت رائعة، إلى صلوات لفظية وشكلية ليس إلا، ليس فيها لا روح ولا قلب ولا صدى في معانياتنا اليوم.

ولأن علينا أن نخرج في صلاتنا من دائرة أنانيتنا، فلا ينبغي أن نصلي فقط من أجل حاجاتنا وطلباتنا الشخصية، الضيّقة، بل من أجل الآخرين أيضاً، ولاسيّما المحتاجين منهم، مثل المرضى والحزانى والموتى والشهداء وضحايا العنف والجوع والفيضانات.. وهكذا نكون حاضرين إلى الله وإلى إخوتنا البشر.

ولكن قد نخطئ كثيراً إذا ما حسبنا أن الصلاة فعل سحر بإمكانه أن يغيّر الله بحيث يفعل ما نشاء نحن وما نطلبه منه. فإلهنا ليس إلهاً ساحراً يقلب الناس بين ليلة وضحاها، بالرغم من إرادتهم وحريتهم، ولا هو قوة غاشمة تتحكم بالمصائر وتقلّب أنظمة الكون، وإنما هو قوة محبّة وأبوّة. ولذا يود

احترام الإنسان الذي خلقه حراً، فلا الإنسان عدم أمام الله، كما نسمع من الكثيرين، ولا هو طفل مدلّل يستجيب الله إلى كلّ نزواته. ولكنّه، مع ذلك، يقيم وزناً، بل وزناً كبيراً للإنسان ولإرادته وحريته. ولذلك يعرض الله ولا يفرض، وهو ينبوع يغدق عطاياه على الإنسان من خير ورحمة وسعادة ومحبّة وسلام وعدل. وعلى الإنسان يتوقف أمر قبولها أو رفضها، بفتح باب قلبه أو إغلاقه على الله وعلى عطاياه.

فإذا ما شئنا تغيير الأوضاع البشرية في العالم، فإن الصلاة وحدها لا تكفي. ولابد من توفر شرط أساس ألا وهو الاستعداد الحسن والإرادة الصالحة، الطيبة، ومن ثم ترجمة هذا الاستعداد وهذه الإرادة إلى واقع وإلى عمل فعلي لتغيير هذه الأوضاع، وإن كان من الصعب جداً القيام بذلك، نظراً إلى تشابك الأمور وتعقدها في عالم اليوم. فالسلام، على سبيل المثال، لا يأتي عن طريق الصلاة وحدها من دون تحريك أيّ ساكن للوصول إليه أو لتسهيل تحقيقه، وإنما إذا خلقنا في أنفسنا استعداداً لقبوله فينا، ومن ثم في الآخرين وحولينا. وكذلك إذا فعل أولئك الذين في أيديهم مفاتيح السلام واتخذوا الإجراءات العملية الجادة وصولاً إليه.

في كلّ الأحوال تبقى صلاة يسوع هي المثال الأعلى والنموذج الأكمل لصلاتنا: "يا أبتاه.. لا كمشيئتي بل كمشيئتك" كما ينبغي أن نختم صلاتنا، لاسيّما في الطلب بهذه العبارة التي كان يردّدها القديس توما مور وهي: "يا رب هبني أن أحقق ما أطلبه منك"!.

يسوع المسيح في نظر الرسل والجماعة المسيحية الأولى

مختلفة هي نظرات الناس إلى يسوع المسيح، اليوم كما في الأمس.

في هذا المقال سنقتصر بالحديث على نظرة الرسل والجماعة المسيحية الأولى الذين حاولوا فهم هذا الرجل الذي وسم التاريخ بسماته إلى أعمق الحدود. وسنلقي بعض الضوء على هذه النظرة قبل القيامة وبعدها، وكيف قدّموه للناس، ومن ثم نفضي إلى نظرتنا نحن اليوم.

نظرة الرسل إلى المسيح قبل القيامة:

نظرة الرسل إلى المسيح لا تختلف جوهرياً، في هذه المرحلة، عن نظرة عامة الشعب. فلقد كان الناس يرون في يسوع نبياً، أو واحداً من الأنبياء القدامى، إذ يقول الإنجيل: "وسمع أمير الربع هيرودس بكلّ ما كان يجري فحار في الأمر، لأن بعض الناس كانوا يقولون: إن يوحنا قام من بين الأموات، وبعضهم: إن ايليا ظهر، وغيرهم: إن أحد الأنبياء الأولين قام" (لو 9: 7–8). والأعمى منذ مولده صرح للفرّيسيّين قائلاً: إنه نبي" (يو 9: 17). وسمعان الذي دعا يسوع إلى الطعام عنده اعتبره نبياً، وإن تشكّك من تعامله مع الناس: "فلما رأى الفرّيسيّ الذي دعاه هذا الأمر، قال في نفسه: "لو كان هذا الرجل نبياً، لعلم من هي المرأة التي تلمسه وما حالها: إنها خاطئة" (لو 7: 40).

وممّا لاشكّ فيه أن الشعب قد توصّل إلى هذه الاستنتاجات بسبب الأقوال التي كان يسوع يتفوّه بها والأعمال التي كان يصنعها، حتّى بدت مثار دهشة وإعجاب وجدال وانقسام وتساؤل حول شخصه "لأنه كان يعلّمهم مثل من لـــه سلطان، لا مثل كتبتهم" (متى 7: 26). ويقول عنه الحرس المكلّفون بالقبض عليه: "ما تكلّم إنسان قط مثل هذا الرجل" (يو 7: 47).

هكذا رأى الرسل في معلّمهم، على غرار الجماهير، نبياً مرسلاً من قبـــل الله، وقد بقوا على هذا الرأي حتّى بعد أن دعاهم إلى إتباعه. وهذه الرؤيـــة يعكسها تلميذا عمّاوس اللّذان عادا إلى قريتهما بعد الصلب لاعتقداهما بأن كلّ شيء قد انتهى. فيقولان للذي أنضم إليهما في الطريق، ولم يعلما بأنه يسوع: "وكان نبياً مقتدراً في العمل والقول عند الله والشعب كلّه" (لـــو 24: 19). وهذه النظرة إلى شخص يسوع باعتباره نبياً مرسلاً مـــن قبـــل اللهـــ نظـــرة صحيحة، وإن لم تكن نهائية ومتكاملة.

كما رأى الرسل في يسوع، شأنهم شأن الشعب، المسيح المنتظر. بيـــد أن فكرتهم عنه كانت أسيرة الحدود القومية وبعيدة عن فكرة يسوع نفســـه عـــن مسيحانيته. فالرسل واليهود كانوا ينتظرون آنذاك ويحلمون بمسيح يحررهـــم من يد الاستعمار الروماني. لذا كان رجاؤهم أيضـــاً قوميـــاً. يقـــول تلميـــذا عمّاوس: "وهو الذي كنا نرجو أن يعتق إسرائيل" (لو 24: 21). ومن أجل ذلك عزم الشعب يوماً أن يقيمه ملكاً عليه. ولنفس السبب أيضاً رفض بطرس فكرة مسيح متألم حين أعلن يسوع عن قرب آلامه: "حاشى لك يا رب هـــذا المصير" (متى 16: 23).

هذا المفهوم القومي الضيّق عن المسيح هو الذي حال دون فهم شخصية يسوع المسيح الحقيقية وفهم بعض أقواله وأحداث حياته فهماً صحيحاً، ولطالما حاول يسوع إزالة هذه الأفكار الخاطئة عنه من أذهانهم لئلا يقع التباس حول هويته الحقيقية. لذا يحذرهم من كشفه للناس. وهذا ما ينطبق على مفهوم "الملكوت" الذي حسبوه ملكوتاً قومياً أرضياً، ممّا جعل أم ابني زبدي أن تطلّب إلى يسوع أن يجعل ولديها وزيرين في ملكوته. الأمر الذي أغضب التلاميذ الآخرين (متى 20: 20-28).

هذه النظرة الناقصة والمشوّهة لن تصحّح في الواقع إلا بعد قيامة يسوع من بين الأموات.

أما الرؤساء والفرّيسيّون والكتبة فقد رأوا في يسوع رجلاً خاطئاً بالمعنى الناموسي، إذ لا يرعى حرمة السبت (يو 9: 25)، مشاغباً، مضلّلاً الشعب (لو 23: 5)، سامرياً وممسوساً من الشيطان (يو 8: 48). ولربما كانت هذه الرؤية تثيرها غيرتهم وحسدهم وتعرّضهم للسانه ورفضهم رسالته أكثر ممّا كانت نتيجة قناعات فكرية لديهم. وبدأ صراع مرير وطويل بينهم وبين يسوع أخذ يشتدّ بمرور الزمن إلى أن أفضى بيسوع إلى الصلب كمتمرد ومجدف مع المجرمين. ولقد كان يسوع على وعي بهذا المصير، لا لكونه ابن الله وحسب، وإنما لإدراكه العميق بأن عليه تحمّل نتائج أقواله وأعماله، كتهجمه على النظام الديني السائد آنذاك وتصرفه مع الشعب، ولاسيّما تقربه من الخطأة والعشّارين وإثارته البسطاء وتعامله الغريب مع النساء وخاصة حريته الواسعة في شرح الشريعة، كالسبت مثلاً، وإبعاد الناس عن الطبقة الدينية الحاكمة وفضح استغلالها وعيوبها، ممّا أدى إلى التخلص منه.

وأما ما يميّز الرسل عن بقية الشعب في طبيعة علاقتهم مع يسوع، فهو اختياره إياهم لإتباعه والانضمام إليه في تعليمه وفي حياته. وقد لبوا دعوته حتّى تركوا كل شيء وتبعوه دون أن يدروا ما في هذه الدعوة من مخاطر ومطاليب، ودون أن يدروا المصير الذي كان ينتظرهم. وهكذا نرى لاوي يترك مهنة الجباية، وبطرس ويعقوب ويوحنا واندراوس مهنة الصيد.. ومذ ذاك صار الرسل يعايشونه ويتبعونه في البيت والقرى، في المدن وعلى الطرقات، يسمعونه يكلّم الناس بأقوال وأمثال عن الله وملكوته حتّى بدت بعض هذه الأقوال جديدة عليهم تماماً، ويرونه يعمل لصالح الإنسان أعمالاً كانت بمثابة جواب على تساؤل يوحنا المعمدان الذي ارتاب فيه زمناً، إذ كان يعتقد بأن المسيح، متما جاء، فسوف يطهّر الشعب ويبيد الخطأة، الأمر الذي لم يفعله المسيح بل استقبل الخطأة، تاركاً الفصل والتمييز ليوم الحصاد، أي ليوم الدينونة.

ونتيجة لهذه المعايشة نما الإيمان والمحبّة في قلوبهم نحوه. بيد أن هذا الإيمان لم يكن مستقراً وثابتاً، بل كان يتأرجح أحياناً بين القوة والضعف، بين الشكّ واليقين. فكم من مرة وبّخ يسوع تلاميذه على قلّة إيمانهم وضعفه، كما تعرّضت هذه المحبّة للنكران من قبل بطرس، وللخيانة من قبل يهوذا، والتخلي من قبل معظم التلاميذ إبان الصلب، تلك المحنة القاسية، حتّى بدا وكأن كلّ شيء قد انتهى بصلب يسوع وموته. فهذا الصلب قد شكّل في واقع التلاميذ المنهزمين فشلاً ذريعاً للمسيح ولمشروعه وخيبة كبيرة لهم. أما للرؤساء فقد جاء ضربة موفقة للقضاء التام على يسوع، وفي أحسن

التقديرات طوى ذكراه مع كلّ أولئك الحالمين الذين ادعوا العمل لخلاص البشر في التاريخ !.

نظرة الرسل إلى المسيح بعد القيامة:

ولكن حدث ما لم يكن بالحسبان، لا في خلد التلاميذ ولا غير التلاميذ، فقد قام المسيح حياً:" أقامه الله من بين الأموات ونحن شهود بذلك" (أعمال 3: 15). وهؤلاء الشهود هم الرسل وبعض النسوة.

إن هذه القيامة، هذا الحدث الفريد من نوعه، هو في أصل النظرة الإيمانية واللاهوتية الجديدة التي ألقاها الرسل على يسوع المسيح، وهي في أصل فهمهم يسوع فهماً صحيحاً، وبالتالي في أصل تكوين وتقديم صورة أو وجه ليسوع المسيح لا يني التلاميذ يقدّمونها للعالم عبر تبشيرهم بالإنجيل.

وممّا سيزيد هذه النظرة وضوحاً وثباتاً، والرسل فهماً وقوة وشجاعة، هو الروح القدس الذي يحلّ على التلاميذ يوم العنصرة، هذا الروح الذي كان قد وعد به تلاميذه لمواصلة عملية الكشف التي بدأها (يو 14: 25-26). والروح نفسه يشهد على قيامة المسيح مع الرسل (يو 15: 26-27) ويبكت العالم على ثلاثة أمور: على الخطيئة التي تقوم على رفض الإيمان والاعتراف بيسوع مرسلاً من الأب؛ وعلى البر إذ سيُفهم الروح العالم الذي لم يعترف بحقيقة يسوع أن الله أرسله، بما انه عاد إلى الأب. وأخيراً سيبكت العالم على الحكم، إذ تصوّر أنه حكم على يسوع، ولكنّ الحقيقة هي أن يسوع في اللحظة التي مات فيها، قد دشن ملكه المجيد، حيث كان هذا الموت ارتفاعاً عن يمين الأب. فالقيامة وحلول الروح القدس حدثان لا ينفصلان

ويكملان الواحد الآخر.

ومذ ذاك أخذ الرسل ينظرون إلى يسوع نظرة جديدة، مختلفة، عميقة وحقيقية، فدعوه ابن الله، الرب، المسيح، ابن الإنسان، كلمة الله، وحكمته، ابن داؤد، وابن يوسف. وهكذا يكتب القديس يوحنا في مستهل إنجيله: "في البدء كان الكلمة، والكلمة كان لدى الله، والله هو الكلمة" (يو 1: 1). وأما بالنسبة إلى تسمية "ابن الله"، فان الرسل والتلاميذ لم يقروا بيسوع "ابناً لله" إلا بعد القيامة. وتلك عبارة عقائدية استخدمها الأخوّة في أورشليم مبكراً للحديث عن يسوع "القدوس البار" وعن "الفتى يسوع" (أعمال 3: 14 و 4: 27). وقد كانت هذه التسمية عزيزة أيضاً على قلوب الأخوة في الكنائس التي أسسها بولس. فمنذ اهتدائه أخذ هذا الرسول ينادي أمام اليهود في المجامع بأن يسوع هو ابن الله (أعمال). وفي إحدى رسائله كتب قائلاً: "في شأن ابنه الذي ولد من ذرية داؤد من حيث أنه بشر، وجعل ابن الله في القوة بقيامته من بين الأموات، من حيث أنه روح القداسة ألا وهو ربنا يسوع المسيح" (رو 1: 3-4).

وكذا الشأن مع عبارة "الرب" حيث نشهد الانتقال إليها بعد القيامة وحلول الروح القدس إذ يكتب بولس في إحدى رسائله: "... لا يستطيع أحد أن يقول "يسوع رب" إلا بإلهام الروح القدس" (1 قور 12: 13). فمريم المجدلية التي تراءى لها المسيح قبل الأحد عشر تقول للرسل بأنها "رأت الرب" (يوحنا 20: 8). والتلاميذ بدورهم سيقولون لتوما: "لقد رأينا الرب" (يو 20: 25)، وتوما سيقرّ معترفاً، وكأنه قد هزم: "ربي وإلهي" (يو 20: 28). أما القديس بولس فيكتب إلى أهل قورنثية قائلاً: "أما رأيت المسيح يسوع ربنا" (1 قور

9: 1) وينقل الإيمان عينه في 1 قور 8: 6: "ولكن لنا إله واحد، الأب الذي منه كلّ شيء ونحن إليه، ورب واحد، يسوع المسيح الذي به كلّ شيء ونحن به".

وممّا لاشكّ فيه أن هذا الانتقال في التعبير ليس من قبيل الصدفة وإنما يتصل بقصد لاهوتي محدّد. فالمسيح المصلوب على يد اليهود قد صار بقيامته رباً. وهذا ما يقوله القديس بطرس لليهود يوم العنصرة: "فليعلم يقيناً جميع آل إسرائيل أن الله جعل يسوع هذا الذي صلبتموه رباً ومسيحاً" (أعمال 20: 34–35). وإذ يرتفع المسيح عن يمين الله ينال النصيب الملوكي من قبل الله. إنه الآن رب الأرباب وملك الملوك (رؤيا 7: 14).

ومع اعتراف الرسل بيسوع رباً، اعترفوا به مسيحاً أيضاً، كما اتضح لنا من هذا النص الأخير، أي الملك الممسوح من قبل الله على الناس. وقد تطهّر هذا المفهوم ممّا كان الرسل والتلاميذ يحملونه في أذهانهم سابقاً كالبعد القومي. هكذا دعي يسوع بهذا الاسم. أي "الرب" بعد أن كان غالباً ما يدعي قبل القيامة باسمه الخاص "يسوع". الآن فهم الرسل والتلاميذ أقوال يسوع وأعماله وأحداث حياته. ولاسيّما تلك المتعلقة بآلامه وقيامته. وقد عادوا إلى العهد القديم في قراءة جديدة له لربط يسوع المسيح بالتوراة والأنبياء والمزامير في محاولة لفهم شخصيته الحقيقية وسرّه.

وأما عبارة "المخلّص" فقد كانت تطلق على الله والأباطرة آنذاك على حد سواء. بيد أن الملاك بقوله ليوسف: "وستلد (أي مريم) ابناً فسمّه يسوع. لأنه هو الذي يخلّص شعبه من خطاياهم" (متى 1: 21) قد حدّد مهمّة المسيح مسبقاً . ويدعو الإنجيل المسيح "موسى الجديد" الذي جاء ليكشف للناس إرادة

الله النهائية، بل هو أعظم منه، وكذلك دعاه "ابن الإنسان" و "ابن داؤد"، وتلك ألقاب تحمل أبعاداً لاهوتية أكثر ممّا هي مجرّد نعوت نَسبَية. و "ابن يوسف" في إشارة ليس فقط إلى مدبره، وإنما أيضاً إلى يوسف الصديق بن يعقـــوب الذي خلّص شعبه من الجوع في مصر وكانت مملكة الشمال تعتـبره كملـك لها.

إن هذه الصورة التي كوّنها الرسل عن المسيح على ضوء القيامة وحلول الروح القدس هي التي نقلوها إلى العالم كبشرى سارة لإشراك جميع النـــاس فيها، غير آبهين بالأخطار المحدقة بهم، وكم وجـــدوا أنفســـهم ســـعداء لأن يتعذبوا ويموتوا ويستشهدوا: صلباً أو سيفاً أو قتلاً أو رجماً، حبّـــاً بالمســـيح وبقضيته. وهكذا نشأت الكنيسة الأولى، أي الجماعة المسيحية الأولى الـــتي حملت نظرة الرسل هذه وشهدت لها.

وهي هذه النظرة الإيمانية،اللاهوتية التي يعكسها الإنجيليون في كتاباتهم، كلّ حسب أسلوبه وهدفه ومخططه، وحسب الجماعة التي يكتب لها ويســـعى إلى الإجابة على أسئلتها وتساؤلاتها.. كمعنى الآلام التي كانت تنهـــال علـــى الجماعات المسيحية الأولى. وهذا ما نراه أيضاً في سفر أعمال الرسل. ففيما يقدّم الإنجيلي لوقا المسيح مخلّصا شاملاً للبشرية، يقدّمه مرقس ويوحنا ابنـــاً لله، ويقدّمه متى لليهود على انه ابن إبراهيم.

هذه النظرات المتكاملة هي التي أثرت على صياغة الأقوال والروايـــات. لذلك باستطاعتنا القول أن الرسل لم ينقلوا الأحداث كما وقعت، وإنمـــا كمـــا رأوها هم. وهكذا يكون الإنجيل شهادة إيمانية للرسل وللكنيسة الأولى، وليس تسجيلاً حرفياً أو نقلاً مادياً للأحداث. ولكنّ هذا لا يعني أن الرسل لم ينقلـــوا

لنا أحداثاً تاريخية، وإنما هذه الأحداث التاريخية التي نقلوها قد عاشوها، ومن ثم نقلوها على ضوء نظرتهم الإيمانية من أجل إبراز أبعادها ومعانيها.

نظرتنا نحن اليوم:

إذا كان علينا، نحن المؤمنين، أن نحتفظ اليوم بكامل هذه النظرة إلى شخص يسوع المسيح، فلا نحذف أو نسقط منها شيئاً (لأننا ننتمي، مثل الرسل والجماعة المسيحية الأولى، إلى حدث القيامة). فمن حقّنا أيضاً، وبالتالي من حقّ كلّ واحد منا، أن يمتلك إضاءة خاصة إلى جانب من جوانب شخصية يسوع، فيرى فيه صديقاً، أو ثائراً، أو معلّما، أو راعياً صالحاً. وأما أنا فأرى فيه النموذج الأكمل للإنسان لا يبلغ أحد سواء هذا النموذج ولا يقترب منه إلا به.

وهو النموذج الأكمل للإنسان بصفاته.. من محبّة، وطيبة، وحنان، ورحمة، وعزم، وثبات، وقوة، وشجاعة، ومحبّته للناس لم تقتصر على فئات معيّنة، وإنما شملت كلّ الناس وكلّ إنسان. ومن أوجه هذه المحبّة احترامه للإنسان واحترام قراره في الاختيار وكذلك تفهمه للناس، ولاسيّما الخطأة، لأوضاعهم وظروفهم من دون أن يحكم على أحد. فهو لم يحكم على المرأة الخاطئة أو زكا العشّار أو مريم المجدلية أو السامرية. وكذلك أبدى ثباتاً وشجاعة وصلابة إزاء الأقوياء والأغنياء كالفرّيسيّين والصدّوقيين والملك هيرودس الذي وصفه بالثعلب، هؤلاء أصحاب السلطة السياسية والدينية.

وهو النموذج الأكمل للإنسان في تعليمه حيث ضمّنه مبادئ إنسانية وإلهية كالأخوّة والسلام والعدل والخير، من دون أن يتدخل في تفاصيل حياة الإنسان أو يشرع قوانين لمريديه، ما خلا قانوناً واحداً، أو وصية واحدة وهي وصية

المحبّة، الأمر الذي يبعث حقاً على الارتياح. ولذا تبدو المسيحية مرنة وصعبة. مرنة لأنها تخلو من الشرائع الجامدة والفرائض الثابتة، وهي صعبة لأن متطلّبات الحبّ ملزمة بصورة أعمق كالتضحية ونكران الذات وعطاؤها.

وتعليم المسيح يتجه دوماً نحو تجاوز الذات وتخطي الحدود الضيقة إلى الآفاق الرحبّة، إلى الاكتمال والشمولية: "كونوا كاملين كما أن أباكم كامل" (متى 5: 48). فإلى هذا السعي في تحقيق الكمال في المحبّة يدعو يسوع عندما يوصي تلاميذه: "أحبّوا بعضكم بعضاً كما أنا أحببتكم" (لو 15: 12).

وأخيراً كان المسيح النموذج الأكمل للإنسان في أعماله: يكثر الخبز للجائعين، يحيي الموتى، يغفر الخطايا.. وبذلك يعيد الأمل والفرح إلى القلوب المنكسرة. وبسبب ذلك كلّه أعجب به تلاميذه فأحبّوه، وآمنوا به، واتبعوه في تعليمه ومحبّته وطيبته ورحمته، بل حتّى في تضحيته حتّى الدم والموت والشهادة. تلك، لعمري، قمة في المحبّة.

* * *

يسوع الإنسان

من المعروف أن لشخصية يسوع المسيح جانبين الإلهي والإنساني. وفيما ندع في هذا المقال الجانب الإلهي سنركز على الجانب الآخر الذي يهم الإنسان المعاصر اليوم أكثر، ألا وهو الجانب الإنساني كما رشح من الأناجيل، بالرغم من كونها دُونت في ضوء القيامة والتي كشفت عن أن يسوع هو المسيح والرب وابن الله...

يسوع إنسان:

يظهر من الإنجيل المقدس بأن يسوع كان إنساناً حقاً مثلنا، شبيهاً بنا. فلقد عاش واختبر وضعنا البشري بعمق إلى حد النهاية المأسوية المعروفة.

فهو يولد ككلّ أطفال هذا العالم، ولكن في مذود "لا في القصور"، لأنه لم يكن لهما موضع في المضافة (لوقا 2: 7) فلقد قاسم يسوع حقاً ظروف حياة تلك الشعوب القديمة.

ومع الفقر يعرف الاضطهاد منذ بداية حياته مروراً بحياته العلنية وإلى نهايتها. وهو لن ينجو من الاضطهاد الأول إلا بسبب الرسالة المستقبلية التي كانت تنتظره.

ومن ثم ينمو ككلّ الأطفال قي القامة والوعي والثقافة. أو لا يكتب القديس لوقا قائلاً: "وكان يسوع يتسامى في الحكمة والقامة والحظوة عند الله والناس" (لوقا 2: 52).

وعندما يكبر يمارس مهنة التجارة، تلك المهنة التي كان يزاولها القديس يوسف. ولذا يعرف بالنجار ابن النجار (مرقس 6: 3).

وبعد اعتماده على يد يوحنا المعمدان في نهر الأردن يسرع في تحقيق رسالته، هذه الرسالة التي سرعان ما بدت بأنها إعلان ملكوت الله أي سيادته، أو سياسة الله لخلاص البشر.

وبسبب هذه الرسالة سيلاقي الرفض والفشل والمقاومة والمجابهة والمعارضة أكثر فأكثر. فالجموع تبتعد والخصوم يشدّدون وطأتهم ويسوع ينصرف إلى تكوين تلاميذه.

أما التلاميذ والجماهير فهو ينظرون إلى يسوع بمثابة نبي أو بمثابة النبي أي موسى الجديد الذي كان ينتظره اليهود والسامريون على حد سواء (يوحنا 4: 19) نظراً إلى الآيات التي كان يأتي بها (يوحنا 3: 2؛ 6: 15). أو حتّى بمثابة نبي من الأنبياء (مرقس 6: 15؛ 8: 27–28).

وفي هذه الفترة من حياته، يظهر له أقرباء يسمّيهم الإنجيل المقدس إخوته وأخواته (مرقس 6: 3). وهم في الحقيقة، أهله وأقاربه. نراهم يتدخلون عندما يرونه في مأزق.

كما أن يسوع سيعرف، أثناء أدائه هذه الرسالة وأحياناً كثيرة بسببها، الألم والتجربة والتعب والبكاء والجوع والعطش والحزن والكآبة والضعف والموت.

فهو يتألم ألماً شديداً وعميقاً عندما يرى كلّ هؤلاء الفقراء والخطأة والمرضى والحزانى والمتألمين والمظلومين ضحايا المجتمع وهو يتألم أكثر وخاصة عندما يرى ذاته، شأن رسالته، مرفوضاً.

وكذلك فهو يتعرّض للتجارب طوال حياته كتجربة السيادة على العالم (يوحنا 6: 15) ولكنّه ينتصر عليها في كلّ مرة. ويشعر بالتعب من السير الطويل فيجلس على حافة بئر (يوحنا 4: 6) أو ينام على الوسادة في مؤخرة السفينة (مرقس 4: 27) أو يتكئ على شباك الصيد. ويبكي على أورشليم وتدمع عيناه على صديقه لعازر تعبيراً عن محبّته القوية والعميقة له (يوحنا 11: 35-36). ويجوع ويعطش فيطلب من امرأة سامرية أن تستسقيه ماء (يوحنا 4: 7). كما إنه يشعر بالحزن والكآبة أثناء نزاعه في بستان الزيتون إذ يقول لتلاميذه: "نفسي حزينة حتّى الموت، امكثوا هنا واسهروا معي" (متى 26: 37). وتخور قواه أثناء حمله الصليب ممّا اضطر الجنود أن يطلبوا من شخص آخر بحمله عوضاً عنه (متى 27: 32). وأخيراً يموت صلباً باختناق بطيء، منبوذاً ومرفوضاً.

إلا أن حياة يسوع لم تجر كلّها على هذا النحو. فهي لم تكن خالية من الأمل والتفاؤل والنجاح والفرح الداخلي الدائم بالرغم من كلّ شيء. ونراه أيضاً يقاسم أفراح معاصريه بمشاركته في عرس جرى في قانا الجليل (يوحنا 3: 1-11). فكلّ ما هو إنساني لم يكن غريباً عنه بل اضطلع به حتّى النهاية.

يسوع إنسان إنساني:

إلا أن يسوع لم يكن إنساناً حسب، وإنما كان إنساناً إنسانياً أيضاً، لا يضاهيه أحد في هذه الإنسانية. فهو يشكّل قمة وذروة الإنسانية: انفتاح وسعة أفق في الفكر بعيداً عن الانغلاق و التعصب والتزمت وشمولية مدهشة ومذهلة في القلب.

ويظهر المسيح انفتاحه وسعة أفقه في الفكر ليس فقط تجاه الشعب اليهودي بكلّ شرائحه وفئاته وإنما أيضاً تجاه كلّ الشعوب الأخرى المجاورة له كالسامريين والكنعانيين. فيقبلها ويقوم بزيارتها الأمر الذي شكّل خرقاً للحظر المفروض عليها إذ كانت تعتبر لا يجوز مخالطتها مخافة أن يتعرّض اليهود للنجاسة.

إلا أن يسوع، بزيارته المتكررة هذه، حطّم هذه العقلية السائدة أي هذا المفهوم السائد حول النجاسة. وبذلك رفع الحدود والسدود المصطنعة التي يضعها البشر على طريق بعضهم من دون مبرر أو مسوغ.

وفي الوقت ذاته يظهر شمولية في الحبّ والحنان والرحمة والطيبة والاحترام والتفهم لجميع الناس. ولذا كان حبّه، شأن حنانه وعطفه ورحمته، موجهاً إلى الإنسان، إلى كلّ إنسان في كلّ أبعاده، بغض النظر عن دينه أو قوميته أو جنسه أو رأيه. أو ليست هذه النظرة الصحيحة إلى الإنسان؟ إنه يتوجه إلى اليهود كما إلى السامريين والكنعانيين على حد سواء بل إلى العالم بأسره. فالناس، في نظره، كلّهم أبناء وكلّهم متساوون في القيمة الإنسانية الواحدة. إنه حبّ شامل، كامل لا يعرف الحدود ولا السدود، حبّ صاف، عميق وأصيل لا تشوبه شائبة. فلا أثر في قلبه للكراهية والبغضاء والضغينة والحقد والعداء.

وبسبب هذا الحبّ اختبر الألم ولاسيّما ألم رفض الحبّ. هذا الرفض الذي شكّل صليب المسيح الحقيقي والكبير الذي حمله طوال حياته وتكلّل بموته.

علاقات يسوع الإنسانية:

إلا أن انفتاح المسيح، شأن سعة أفقه وشموليته، قد تجلّى بصورة أقوى في مواقفه وتصرفاته وفي علاقاته مع بعض الفئات، داخل الشعب اليهودي، أكثر من سواها كالخطأة والفقراء والصغار والأعداء والنساء والأصدقاء سواء كانوا تلاميذ أو أخصاء.

- **الخطأة:** يتفهمهم يسوع ويتفهم الظروف التي قادتهم إلى تلك الحالة من دون أن يحكم عليهم أو يدينهم كالسامرية والمرأة الخاطئة وزكا. يقول للمرأة الزانية: "وأنا لا أحكم عليك، اذهبي ولا تعودي إلى الخطيئة" (يوحنا 8: 11) لا بل يعتبر وسيط الغفران بينهم وبين الله إذ يقول لهم: "مغفورة لك خطاياك".

- **الفقراء والصغار:** يقف إلى جانبهم بقوة، يدافع عنهم، يساندهم ضد المستغلين والمستعبدين من رجال الدين والسياسة. يعلن تحريرهم ويبشرهم ويطوّبهم لأن الملكوت لهم (متى 5: 3). ويسعى إلى تحريرهم فعلاً فيردّ إليهم اعتبارهم وحريتهم وكرامتهم المسلوبة. وعلى العكس من ذلك يبدو قاسياً للغاية مع الأغنياء والأقوياء. ولنا في الإنجيل المقدس كلمات تنم عن القسوة "الويل لكم أيّها الأغنياء، أيها الشباعى، أيّها الفريّسيّون"! أما المنافقون والانتهازيون فلا يتردّد في فضحهم.

- **الأعداء:** لا يكنّ لهم الضغينة أو الحقد أو الكراهية أو البغضاء. لا يثأر منهم لنفسه. لا يعاقبهم أو يهدّدهم. وإنما يتركهم أحراراً. وعوضاً عن ذلك يحبّهم، يغفر لهم، يسامحهم دوماً. فمواقفه ومشاعره لا تتبدّل ولا تتغير تجاههم ويدعو تلاميذه أن يحذو حذوه قائلاً: "أحبّوا أعداءكم وصلّوا من أجل مضطهديكم" (متى 5: 44).

- **النساء:** أما النساء فهو لا يعتبرهن كائنات من الدرجة الثانية. فهنّ، في نظره متساويات في القيمة الواحدة مع الرجال أي في الكرامة الواحدة: "أنتم جميعاً إخوة" (متى 23: 9). ولذا لا نجد في كلّ تعليم يسوع وفي كلّ تصرفاته أيّ شيء يعكس التفرقة القائمة في عصره بين المرأة والرجل، بل أن أقواله وأعماله كانت، على عكس ذلك، تنم عن الاحترام والتكريم الواجب اعتمادها في التعامل مع المرأة. فالمرأة قوساء الظهر سماها يسوع "ابنة إبراهيم" (لوقا 13: 16). فيما لم يطلق هذا اللقب في التوراة بأكملها، إلا على الرجال "أبناء إبراهيم".. ويعبر يسوع عن هذه المساواة بين الرجل والمرأة عندما يغفر لها ويكلّمها ويشفيها تماماً كما يغفر للرجل ويشفيه ويكلّمه..

وبالإضافة إلى ذلك، فإن المرأة، في نظر يسوع، مساوية للرجل إذ تمسي بقبولها الملكوت، عضوة. ومن ثم تلميذة وشاهدة ومبشّرة ورسولة شأن مريم المجدلية.

- **الأصدقاء:** ليسوع المسيح تلاميذ اختارهم (يوحنا 15: 16). ويدعوهم أصدقاءه وأحبّاءه (يوحنا 15: 15) يحبّهم ويحبّونه ويتعلقون به تعلقاً شديداً، يعيشون معه في ألفة حميمة بحيث يصعب فراقه عنهم. لهم يبوح بأسرار الملكوت (متى 13: 11). أما هم فقد دخلوا مدرسته لكيما يتعلّموا منه، فيصغون إليه وإلى كلامه.

الإنسان المعاصر وإنسانية يسوع:

إن اهتمام الإنسان المعاصر ينصب اليوم على إنسانية يسوع أي على

الجانب الشبيه بنا، والمشترك معنا، أكثر من اهتمامه بلاهـــوت المســـيح حيث كان التركيز يذهب إليه قديماً. ذلك أن إنسان اليوم حساس بكلّ ما هـــو إنساني (الجسد، الجنس، الحبّ). وقد أخذ يعي قيمته وحريته واستقلاله بفضل العلوم الإنسانية كعلم التربية والنفس والاجتماع وغيرها. وهذا الوضع هـــو الذي عاشه يسوع واختبره بعمق.

ولأن الإنسان المعاصر يمكنه أن يكتشف الله فيما هو بشري حيث يعتلـــن ذاته. يقول انياس برتن في كتابه "مسيح من أجل الفقراء "أعتقد بأن الله يعتلن ويعطي ذاته في يسوع بالذات فيما هو بشري بصورة عميقة. فيسوع هو ابن الله أيضاً بما لديه من بشري. فليس الجسد، بأيّ حال من الأحوال، إلهاً يتخذ مظهراً بشرياً ليس إلا من دون أن يكون بشرياً حقاً. كلا إننا نعترف بأن هذا الإنسان هو ابن الله وهو الله في وسطنا".

وأخيراً يعير الإنسان المعاصر اهتماماً بإنسانية يسوع لأنه بحاجـــة إلـــى حبّ وطيبة ورحمة وحنان واحترام وتفاهم. فما ينقصه ليس الدواء ولا الغذاء وإنما بالذات هذا الحبّ، هذه الرحمة، هذا الحنان، هذا العطف، هذا الاحترام وهذا التفهم وهو يرى في أحيان كثيرة خبث قلب الإنسان وقســـاوته وتقلبـــه وميله إلى حبّ السيطرة والجشع والقمع والاستغلال. إنه بحاجة إلى مثـــال، إلى إنسان نموذج، إلى يسوع المسيح.

* * *

يسوع المسيح
بشرى الله إلى العالم

إن كلمة الإنجيل هي الكلمة المفتاح لفهم المسيحية. و"الإنجيل" كلمة يونانية تعني البشرى السارة. فالمسيحية، منذ البداية، لم تركّز على الشريعة وإنما على هذه البشرى بحلول ملكوت الله بين البشر (عمانوئيل الله معنا). والمسيحية هي مسيحية حقّة بقدر ما تكون بشرى للناس ومتى كفت عن أن تكون كذلك خسرت أسسها الثابتة ومصداقيتها. وإذا كنّا لا نعثر في الإنجيل على التشريع أو الشريعة فلأن الشريعة والإنجيل قطبان مختلفان، بل متناقضان. فحيث الشريعة تغيب البشرى. وحيث البشرى تفقد الشريعة قوتها. ذلك أن الشريعة قانون فيه قمع وردع وتأديب مفروض على الإنسان من الخارج. وأما الإنجيل البشرى فهو نعمة معروضة وحرية تخاطب جوهر الإنسان وروحه. ولهذا الإنسان أن يقبله أو أن يرفضه بملء إرادته. ومع مجيء المسيح، بشرى الله إلى العالم، انتهى "عهد الناموس" الذي أعطي بموسى وابتدأ "عهد الإنجيل"، عهد النعمة وحريّة أبناء الله. لذا، فنحن اليوم لسنا تحت الناموس وإنما تحت النعمة، كما يكتب القديس بولس إلى أهل غلاطية: "فبعد أن جاء الإيمان لسنا بعد تحت مؤدب لأن جميعكم أبناء الله بالإيمان بيسوع المسيح" (غلا 3: 25–26). أو كما جاء في إنجيل يوحنا: "لأن الشريعة أُعطيت على يد موسى، أما النعمة والحقّ، فقد بلغا إلينا على يد يسوع المسيح" (1: 17).

يسوع المسيح إنجيل الله:

وقبل أن يكون الإنجيل هذا الكتاب الذي نقرأه ونسمعه، فهو بشرى حيّة تناقلت ونمت واتسعت، وموضوع هذه البشرى كان شخصاً حياً: يسوع المسيح إنجيل الله، أي بشراه إلى العالم، يقول البابا بولس السادس في رسالته حول التبشير بالإنجيل مستشهدَا بآباء السينودس حول هذه الحقيقة: "إن يسوع نفسه هو إنجيل الله، هو أول وأعظم مبشر، وقد ذهب في القيام برسالته حتّى النهاية، حتّى الكمال، مضحيَا بحياته".

"يسوع المسيح إنجيل الله،"، أو بشرى الله للإنسان: لقد كان يسوع واعياً تماماً لهذه الحقيقة، حيث تصرّف كمرسل حقيقي وخاص من الله إلى البشر، ينطق باسمه، هو "الابن الوحيد الذي في حضن الأب" (يو 1: 18) وينقل بشراه إلى الناس ويدعوهم إلى بنوّته وإلى التحرير من إشكال العبوديات. التشريعية والذاتية. فإذا كان قد أعتبر نفسه موسى الجديد فهو أعظم منه: موسى أعطاهم ماء في البرية قد عطشوا بعده، أما الذي يشرب من الماء الذي يعطيه يسوع فلن يعطش أبداً، "فالماء الذي أعطيه إيّاه يصير فيه عين ماء يتفجر حياة أبدية" (يو 4: 13-14).

موسى أعطاهم منّا في البرية كان بمثابة الخبز، ولكن في الحقيقة الأب هو الذي يعطي الخبز الذي لا يجوع آكلوه، وهذا الخبز هو يسوع نفسه: "لم يعطكم موسى خبز السماء، بل أبي يعطيكم خبز السماء الحقّ، لأن خبز الله هو الذي ينزل من السماء ويعطي الحياة للعالم (يو 6: 22-23). يسوع هو المحرر الحقيقي ومعطي الحياة لكلّ من يؤمن به: "وكما رفع موسى الحيّة من البريّة فكذلك يجب أن يرفع ابن الإنسان لينال به الحياة الأبديّة كلّ من

يؤمن به" (يو 3: 14–15) ويسوع هو أعظم من سائر الأنبياء: "... وههنا أعظم من سليمان"، و"... وههنا أعظم من يونان"، (متى 12: 42، 41).

من هذا المنطلق بشر المسيح بالله وبإرادته النهائية التي إنما هي إرادة تحرير وسلام: "روح الرب نازل عليّ لأنه مسحني وأرسلني لأبشر الفقراء، وابلغ المأسورين إطلاق سبيلهم، والعميان عودة البصر إليهم، وأفرج عن المظلومين.. اليوم تمت هذه الآية" (لو 4: 18–21).

وقد بشر يسوع المسيح بأحداث حياته وبميلاده وصلبه وموته ولاسيّما قيامته من بين الأموات. فلقد نقل الملاك حدث ميلاده للرعاة كبشرى سارة إذ قال لهم: "لا تخافوا، إني أبشركم بفرح عظيم يعمّ الشعب بأجمعه: ولد لكم اليوم مخلّص في مدينة داؤد وهو المسيح الرب" (لو 2: 1). بل أن صلبه وموته هما بشرى سارة، إذ بهما حرّر المسيح البشرية من الموت والخطيئة، وكان نبأ قيامته قمّة البشرى: "فتركتا القبر مسرعتين.. وبادرتا إلى التلاميذ تحملان البشرى" (متى 28: 8)، "فرجعت مريم المجدلية وبشرت التلاميذ بأنها رأت الرب (حياً).." (يو 20: 18)، كما أن يسوع بشر بأقواله وأمثاله العديدة واعظاً ومعلّما، وبأعماله إذ شفى الناس من الأمراض الزمنية والروحية وأقام الموتى، وأعاد الثقة والكرامة إلى الفقراء والصغار.

فمن خلال هذه الأحداث وهذه الأقوال والأمثال والأعمال يكشف لنا يسوع عن طبيعة الإله الذي بشر به وباسمه: "فإذا هو الإله البشرى، الإله الأب الصالح، الإله المحرّر والمخلّص، الإله الذي تهمّه سعادة الإنسان.

إن هذه الصورة التي يعكسها لنا الإنجيل هي تماماً عكس الصورة التي يحملها الناس، بل المسيحيون أنفسهم أحياناً عن الله، حيث تغلب عليه في

أذهانهم صورة الإله الذي___ ويميت كما يشاء، ويلعب بمقدراتهم على هواه، ويرسل إليهم البلايا والمصائب والكوارث. بينما تبدو القضية المركزية التي تمحورت حولها حياة يسوع المسيح وبشارته هي صورة الأب المحبّ الصالح المحرّر، صورة الإله البشري الذي يريد الحياة والسعادة للإنسان: "طوبى للفقراء فإن لهم ملكوت السماوات، طوبى للودعاء فإنهم يرثون الأرض، طوبى للحزانى فإنهم يعزون، طوبى للجياع والعطاش، فإنهم يشبعون... الخ" (متى 5: 1-12). وإذا ما بشّر يسوع بملكوت هذا الإله، أي بحكمه، فليس هذا الحكم مبنياً على القوة والبطش والقمع كما هو الشأن مع الأنظمة الزمنية الحاكمة التي كثيراً ما لا تقيم وزناً للإنسان وقيمته في سبيل البقاء، فهذا الملكوت، ملكوت الله، موجّه إلى القلوب والضمائر، إلى وجدان الإنسان الحرّ الكريم، وذلك لخير الإنسان وسعادته لتحريره من كلّ القيود والضغوط والاستلابات التي يتعرّض لها. فالإنسان في نظر هذا الإله البشرى ابن لـه يجب احترام قيمته وحقوقه وحريته، ويكتسب هذا التحرير أهمية قصوى من أجل أن ينطلق الإنسان إلى إنماء ذاته صوب الكمال.

ولكن إذا كان مجيء هذا الملكوت حدثاً في الزمن قد أنيط تحقيقه بيسوع المسيح، فهو حدث مستقبلي يناط بالإنسان والزمن عبر التاريخ أيضاً. بكلمة أخرى تحقيقه الفعلي منوط بقبول الإنسان له بالإيمان والتوبة، وهو منوّط بالزمن بمعنى انه يتحقق فيه كلّ يوم وتدريجياً إلى نهاية الأزمنة. وبهذا يكون لملكوت الله بُعد أخيري يتحقق كاملاً بمجيء يسوع المسيح الكلي.

هذه البشرى توجهت أولاً إلى شعب الكتاب، أي الشعب العبراني، رجالاً ونساء، شيوخاً وأطفال من دون استثناء، إذن إلى كافة شرائح المجتمع الدينيّة

والاجتماعيَّة، من الفرّيسيّين والكتبة والصدّوقيّين والأغنياء والأقوياء والمساكين والفقراء والضعفاء. وفيما رفضت بعض الفئات هذه البشرى لمناقضتها مصالحها ومراكزها، لاقت آذاناً صاغية في صفوف الفقراء والمساكين والخطأة والمظلومين، ذلك أن هذه البشرى جاءت جواباً إلى آمالهم وطموحاتهم في الحرية والكرامة والمساواة.

غير أن هذه البشرى لم تكن مقتصرة على الشعب اليهودي وحده، بل توجّه يسوع بنفسه إلى الأقوام المجاورة حاملاً بشراه إلى السامريين والكنعانيين– وقد قبلها نفر منهم– وأوصى تلاميذه بعد القيامة أن يتوجهوا إلى جميع الناس حتّى أقاصي الأرض: "وتكونون شهوداً في أورشليم واليهودية كلّها والسامرة وحتّى أقاصي الأرض" (أعمال 1: 8).

الكنيسة والبشرى أمس:

ما أن سمع الرسل هذه الوصية حتّى عادوا إلى أورشليم ينتظرون موعد الأب وبدء الأزمنة الجديدة بحلول الروح القدس الذي استحوذ عليهم يوم العنصرة ودفع بهم كالتيار الهادر متجدّدين متغيّرين، إلى ساحات أورشليم وطرقات فلسطين كلّها ينادون بالبشرى، بشرى يسوع. وكانوا يتأملون في حياة معلّمهم وأقواله على ضوء أحداث قيامته وعلى ضوء ما جاء عنه في التوراة والأنبياء، بل صاروا يعيدون قراءة تلك النبوءات في ضوء بشرى ملكوت الله التي نادى بها معلّمهم وحمّلهم رسالة نقلها إلى العالم أجمع.

وفيما كان موضوع بشرى يسوع المسيح هو الله، أمسى يسوع المسيح هو ذاته محور بشارة الرسل والجماعة المسيحية الأولى، بوصفه بشرى الله إلى الناس. فإلى الصليب كان الرسل والناس ينظرون إلى أحداث حياة يسوع

نظرة اعتيادية. ولكنّنا نشهد بعد القيامة رؤية أخرى جديدة لدى الرسل والمؤمنين إلى أحداث حياة يسوع وإلى أقواله وأعماله، بشائر السعادة والفرح والحياة. وهكذا توصّل الرسل إلى عمق المعنى الذي كانت تحمله حياة يسوع وأعماله وأقواله في مخطط الخلاص.

والرسل والجماعة المسيحيّة الأولى لم يحتفظوا لأنفسهم بهذه الرؤية، أي بهذا الإيمان بالمسيح يسوع كبشرى الله إلى الآخرين، بل حملوه إلى العالم المعروف آنذاك كلّه، ليس لليهود وحدهم، بل لكافة الأقوام والأمم والشعوب والوثنية أيضاً، محقّقين أمر سيدهم الذي أرسلهم إلى كلّ العالم ليدعوا الناس إلى أن يؤمنوا ويعتمدوا. ولقد وجد الفقراء والضعفاء والخطأة في هذه البشرى، قبل غيرهم، قوة تحرير وخلاص، من أجل ذلك قبلها كثيرون بفرح. فإلى هؤلاء يشير القديس بولس حين يكتب إلى أهل قورنتس: "فانظروا أيّها الأخوّة إلى دعوتكم، فليس فيكم كثير من الحكماء بحكمة البشر ولا كثير من الأقوياء ، ولا كثير من ذوي الحسب والنسب. ولكن ما كان في العالم من حماقة فذاك ما اختاره الله ليخزي القوة، وما كان في العالم من غير حبّ ونسب وكان محفزاً فذاك ما اختاره الله: "اختار ما لا شأن له ليزيل صاحب الشأن حتّى لا يفخر بشر أمام الله" (1 قور: 26-30).

هكذا إذن، ما كنا ندعوه في رسالة يسوع "الدعوة إلى ملكوت الله" صار بوسعنا أن ندعوه مع الرسل "الدعوى إلى بشرى المسيح للعالم وفي العالم".

الكنيسة والبشرى اليوم:

ولقد اضطلعت الكنيسة بمهمّة نشر بشرى المسيح، عبر العصور تحت مختلف الأوضاع وبشتى أساليب التعليم والكرازة وفي كافة أنحاء العالم، عبر تاريخ يمتد على ألفي سنة، وسعت إلى ذلك بحماس وكثافة متباينتين: ليبنها المؤمنين في الداخل أولاً، عن طريق الوعظ والتعليم والأسرار القدسية والليتورجيا، ولغير المؤمنين في الخارج، عن طريق التبشير والدعوة إلى الإنجيل.

هذه المهمّة تبدو اليوم أكثر إلحاحاً واشد حاجة من أيّ وقت مضى، وذلك لسببين يذكرهما البابا بولس السادس في رسالته الأنفة الذكر حول التبشير وهما: التغييرات الفكرية والاجتماعية والثقافية العميقة والواسعة التي تطرأ على المجتمع الحالي؛ وأما السبب الثاني فهو التخلي الطارئ عن القيم المسيحية التقليدية من جراء هذه التحولات. كما أن الضرورة تبدو ملحة أيضاً بالنسبة للناس البسطاء الذين احتفظوا بالإيمان ولكنّهم لا يدركون أسسه والتزاماته إلا إدراكاً خاطئاً أو ناقصاً. وكذلك تجاه بعض المفكرين المؤمنين الذين يشعرون بالحاجة إلى معرفة يسوع المسيح معرفة أعمق وأنضج من تلك التي أخذوها عن التعليم الذي تلقوه في طفولتهم. من أجل ذلك ينبغي على الكنيسة أن تولي الأولوية في حياتها للتبشير، أي لإيصال بشرى المسيح وتعاليمه إلى الناس، بدءاً من بنيها، باللغة التي يفهموها ووفق انتظاراتهم وحاجاتهم، فيروا فيها تحقيقاً لذاتهم ودعوة لتحريرهم وطاقة لنمائهم الإنساني الكامل، إذن لبناء بشريتهم الحقّة. أليس أن المسيح جاء ليعيد الإنسان إلى إنسانيته الكاملة الحرة الكريمة المنعتقة من كلّ الاستلابات والعبوديات،

وأولها الخوف والخطيئة!. أليس انه كذلك، وبذلك فقط يحسّ الإنسان ببنـــوته الجوهرية لله التي منها تنبع جذور كرامته!.

وهكذا، كما كانت قضيّة الله هي قضيّة يسوع المســيح، تصــبح قضــيّة يسوع المسيح هي قضيّة الكنيسة، وقضيّة الكنيسة هي قضيّة الإنسان الـــذي تعمل لخلاصه وتحريره باسم المسيح. ولو تخلت الكنيسة عن التبشير لعنـــى ذلك تخليها عن قضيّة يسوع، أي عن الشهادة ليسوع، فعلى الكنيسة، إذن أن تستمر تحمل البشارة وتعلنه لأولئك الذين لا يعرفون يسوع المســيح، ولكــن عليها أن تعلنها ابتداء من المؤمنين أنفسهم من أجل تثبيتهم وترســيخهم فــي الإيمان وإنضاجه، وبشتى وسائل التعليم، كما أوصى بولس تلميذه طيموثاوس (2 طيمو 4: 2). وقد أشار بولس السادس في رسالته المذكورة إلى ضرورة البحث باستمرار عن الوسائل واللغة المطابقة لكلّ حال في ســبيل إيصـــال بشرى المسيح إلى كلّ الفئات، الممارسين وغير الممارسين، المؤمنين وغير المؤمنين، القريبين والبعيدين، الصغار والكبار: بالكرازة المباشــرة، بــالفن، بالاتصال الشخصـــي والبحـــث، بوســـائل الإعلام المرئيـــة والمســـموعة، بالليتورجيا الحية المصلية، في وعظة القداس، وفي الأسرار القدســية، فــي التعليم المسيحي للصغار وفي تنشئة الكبار,, وفوق كلّ شيء بشهادة الحيـــاة، لأن الإيمان حياة وعقيدة قبل أن يكون معلومة.

وهذه المهمّة ليست وقفاً على رؤساء الكنيسة حسب، بل إنها مهمّة جميع أعضاء الكنيسة: البابـــا، والبطاركـــة، والأســـاقفة، والكهنـــة، والرهبـــان، والراهبات، وسائر المؤمنين من الرجال والنساء والشباب والشابات وحتّـــى الصغار. إن نقل هذه البشرى حقّ وواجب على الجميع، وهذه المهمّـــة هـــي

مهمّة كلّ واحد منا، ليس بصفتنا أفراداً مبعثرين، بل لكوننا أعضاء في جسم الكنيسة، وقد اكتسبنا هذه العضوية وهذا الالـــتزام باقتبالنـــا ســـرّي العمـــاد والميرون. فمهمّة الالتزام المسيحي وحمل بشرى الإنجيل على إخوتنا مهمّة عامة تخص كلّ المؤمنين بيسوع إضافة إلى المهام الخصوصية التي يتلقاهـــا كلّ في موقعه الخاص: الكاهن ككاهن، والأسقف كأسقف، الشماس كشماس، وعضو الجوق كمرتل، واللاهوتي كباحث، والراهبة كراهبة... الخ. وهـــذا يعني أن على المسيحي أن يعتبر ذاته، قبل كلّ شيء، حاملاً للبشرى وشاهداً ليسوع وإنجيله، وليس فقط مجرّد مؤمن يصلّي ويـــؤمن خلاصـــه الأبـــدي الفردي. وغني عن القول انه علينا قبل أن ننقل هذه البشرى إلى النـــاس أن نتشبع من فحواها ونطلع على جوانبها أولاً ونعيشها في مواقفنا وتصـــرفاتنا وأحكامنا وآراءنا، بحيث تظهر في حياتنا كجزء من شخصـــيتنا المســـيحية والإنسانية.

* *

المسيح رجل الحوار

يكثر الحديث اليوم عن الحوار، حوار بين الدول والحضارات والشعوب والأديان والكنائس. وهذا الحوار قائم فعلاً على أكثر من صعيد: على الصعيد السياسي، والعملي، والديني، والكنسي، الحوار علامة من علامات الأزمنة. ومن أجل دفع روح الحوار هذا إلى الأمام في كنيسة العراق ومن أجل إعطائه زخماً أقوى وأكبر، أتحدّث اليوم عن يسوع المسيح كرجل الحوار من الطراز الأول.

ما المقصود بالحوار؟

أعطى الأب جيراردي تعريفاً دقيقاً للحوار إذ يكتب: "إن الحوار محادثة يعقدها أشخاص في جو من الحرية والصراحة، يتلاقون على التأكيد على بعض قيم، وإن كانت لديهم اتجاهات مختلفة، إنه محادثة تتناول معضلات تخصّ الأشخاص أنفسهم وتهدف إلى التفاهم والتقارب والإثراء المتبادل للمواقف والأشخاص[*].

المسيح رجل الحوار:

على ضوء هذا التعريف الشامل للحوار، بإمكاننا أن نتساءل عمّا إذا كان المسيح رجل حوار حقاً.

لنعد إلى الإنجيل المقدس. ففيه نجد، كما أشار البابا الراحل يوحنا بولس الأول، 86 حواراً: 37 منها مع تلاميذه، 22 مع بسطاء الشعب، 27 مع

[*] في كتاب "حوار وثورة" ص 16

خصومه،[*] وهذه الحوارات لم تدر كلّها بين يسوع والرجال، بل مع النساء أيضاً.

صحيح أن معظم هؤلاء الرجال والنساء من اليهود واليهوديات، ولكن بينهم رجالاً ونساء غرباء أيضاً. ومن أجل مزيد من الوضوح، نسوق بعض الأمثلة: الحوار الذي جرى بين يسوع والتلميذين الأولين اللذين كانا من تلاميذ يوحنا أولاً. فإذ رآهما يسوع يتبعانه قال لهما: "ماذا تريدان؟ قالا له: رابي (أي يا معلّم) أين تقيم؟ فقال لهما: "هلمّا وانظرا!".

حوار قصير، ولاشكّ، يدعو يسوع التلميذين خلاله إلى الإقامة معه. غير أن الموضوع الرئيس للحوار يدور حول البحث.. والبحث شرط أول من شروط التلمذة.

حوار آخر يدور بين يسوع وأحد خصومه، نيقوديمس الذي كان واحداً من علماء الناموس. فبعد أن اعترف هذا بيسوع نبياً ومرسلاً من الله على غرار موسى بشهادة الآيات التي يجترحها مثله، يكلّمه يسوع عن موضوع آخر، ألا وهو الولادة الجديدة. فيدخلان في حوار رائع حول هذا الموضوع.

وأما المثال الثالث فهو حوار يسوع مع مريم المجدلية غداة القيامة. إن يسوع هو الذي يبادر إلى الحديث معها، فيجري الحوار حول المكان الذي وضع فيه جسد يسوع. وعندما يدعوها باسمها شأن الأصدقاء المتعارفين، تكشفه هي الأخرى وتعترف به معلّما، ممّا يعني إنها كانت تعتبر ذاتها تلميذة للرب.

---

[*] .انظر ف.م. السنة 19، نيسان 1983، غلاف العدد 183

وأما الأمثلة الأخرى فلقد اعتمدت أن أختارها من بين الحوارات التي جرت بين يسوع والغرباء، أي مع أناس مختلفين عنه في الدين والقومية. ومن هذه الأمثلة، مثال قائد المئة، هذا الضابط الروماني الوثني، إذن الرجل الغريب والنجس في نظر اليهود. ومحور الحوار الذي جرى بين يسوع وبينه كان حول شفاء فتاة المريض، فيلبّي يسوع طلبه بعد أن أدهشه إيمانه.

ولدينا العديد من الحوارات التي جرت بين يسوع والنساء، والنساء الغريبات بالذات، كالحوار مع الكنعانية التي بادرها في الطريق على غير ما كانت تبيحه الأعراف عصرئذ. وهل يمكننا أن ننسى الحوار الرائع الذي جرى بين يسوع والسامرية على بئر يعقوب، هذا الحوار الذي بادر إليه يسوع انطلاقاً من حاجة إنسانية، ألا وهي الماء. ولأول وهلة تستغرب المرأة من أن يهودياً يكلّمها. ولكنّ سرعان ما تتبدّل لهجتها معه إذ تدعوه بعبارة "سيّدي". وبعد أن كلّمها صراحة عن وضعها الزوجي اعترفت به نبياً مرسلاً من الله، كموسى الجديد. ثم يدور الحديث عن المكان الذي ينبغي أن يُعبَد به الله، فيشير إليها يسوع أن العابدين الحقيقيين لا يحتاجون إلى موقع جغرافي معيّن، فبالروح والحقّ يعبدون، وقلوبهم تصبح هياكل العبادة الحقّة.

إن هذا الحوار مع الإنسان، ولاسيّما مع الإنسان المختلف عنه فكراً ورأياً وديناً وقومية، إن دلّ على شيء، فإنما يدلّ على مدى انفتاح المسيح على الإنسان، كلّ إنسان، وما الحوار إلا تعبير عن هذا الانفتاح. لذا كان المسيح، بحق رجل الانفتاح.

وفي كلّ هذه الحوارات نجد عنصر الإصغاء والفهم، بل تفهّم الآخر لدى يسوع. يسوع يستمع إلى ما يطرحه الآخر من رأي أو فكرة أو حاجة بحرية

تامة، ويناقشه بهدوء وموضوعية ويسعى إلى إفهامه أو إقناعه، ويقبل ما لديه، بل يكتشف، ما في داخله من إيجابيات، وذلك بالرغم من المظاهر والأوضاع التي يعيشها وبالرغم من النعوت والأحكام التي يطلقها عليه الآخرون، فيردّ الاعتبار إلى كثير من هؤلاء الناس لاعتقاده بأن البنى السائدة آنذاك هي المسؤولة بالدرجة الأساس عن تهميشهم أو خطيئتهم، وليس الإنسان وحده فقط. كما نجد لديه احتراماً عميقاً لمحاوره من دون أن يفرض عليه فكره أو رأيه أو إيمانه، وإنما يتركه، في نهاية الأمر، حراً في أن يقبل أو يرفض ما يطرحه عليه.

وهنا لابد لنا من معرفة الأسباب التي دفعت المسيح إلى إتباع هذا الأسلوب.

لا غرو أن الأسباب الرئيسة لهذا التصرف تتصل اتصالاً مباشراً بطبيعته. فيسوع ليس تلك القوة التي ترفض وتقمع وتهدّد وتقتل وتسلب، وإنما قوة محبّة. ومن طبيعة المحبّة احترام الآخر في كيانه وحقوقه في الرأي والفكر والحرية. وأما السبب الثاني فهو نظرته العميقة إلى الإنسان كونه ابن الله. فالإنسان يشكّل، في نظره، أعلى وأسمى قيمة في الدنيا وينبغي احترامها. ولذا لابد أن تكوين هذه النظرة في أصل هذا الاحترام الذي يبديه المسيحيون للإنسان. إن هذه النظرة تختلف تماماً عن النظرة التي لا ترى في الإنسان سوى عبد أو خادم الله.

وأخيراً رأى يسوع بأن الحوار هو أنجح وسيلة ليس فقط من أجل التعبير عن فكره، وإنما من أجل إيصال هذا الفكر أيضاً إلى الآخرين. إن ما يفسد أحسن الأفكار وأروعها، في أحيان كثيرة، هو طريق إيصالها، كالجدال العقيم أو الانفعال، فينتج عن ذلك ردّة فعل معاكسة لما كان يتوخّاه المرء أصلاً.

الكنيسة والحوار:

إن جو الحوار لم يَسُد دوماً في الكنيسة وفقاً لحالات الانغلاق أو الانفتاح التي مرت بها عبر العصور.

ففي الوقت الذي انطلق الرسل إلى العالم باندفاع وحماس مقطعي النظير، يدفعهم روح المسيح من أجل الشهادة للناهض من بين الأموات، نرى فترات أخرى من الانغلاق يسود فيها الخوف من العالم ومن الآخرين، أو لا يحذّر طقسنا الكلداني من مخالطة الوثنيين الكفار لئلا يتعرّض إيمان المؤمنين للخطر؟!

إنه لمن الضرورة تحليل هذه الظاهرة، ظاهرة الانفتاح أو الانغلاق والتعرف على الأسباب الكامنة وراءها. وبرأيي، إن أسباب الانغلاق تتمثل بالخوف والضعف والغيرة والحسد والشعور بالنقص تجاه العالم والآخرين. وأما الانفتاح فمعناه أن الكنيسة كانت تشعر في هذه المرحلة أو تلك من تاريخها بالقوة والثقة بالنفس في احترام الآخر. وتأتي هذه القوة، ولاشكّ، من المسيح ومن قوة إيمانها. فبقدر ما تتغذّى الكنيسة من تعليم المسيح، بقدر ذلك تكون قوية. وبقدر ما تكون ضعيفة في إتباع تعليم المسيح، بقدر ذلك تكون بعيدة عنه، وفي هذا يكمن الشعور بالخوف والضعف تجاه الآخرين.

فإذا ما سادت روح الانفتاح في حياة الكنيسة كان الحوار موجوداً، حيث أن الحوار هو التعبير الأمين عن الانفتاح. الحوار جسر التعارف والتفاهم والإثراء وتبادل الآراء والخبرات. لذا حيث يوجد انغلاق لا يكون ثمة حوار.

وأما اليوم، فإن الكنيسة الكاثوليكية قد عاودت هذا الانفتاح والحوار مع مختلف الكنائس والأديان ومع العالم والملحدين، وذلك بفضل المجمع

المسكوني الفاتيكاني الثاني، وبعد انغلاق دام زمناً طويلاً. إنها تريد أن تكون كنيسة الانفتاح والحوار.

والحوار، في الواقع، علامة من علامات الأزمنة أو ظاهرة من ظـــواهر العالم المعاصر. يقول الأب جيراردي الأنف الذكر: "فإذا كنا نعتقد بصـــحّة ومستقبل الحوار، فليس فقط علـــى أســـاس خـــبرة هـــذه الحركـــة، ولا لأن الأشخاص الذين نلقاهم يلهموننا الثقة. هناك أعمق من ذلك: الحوار ينـــدرج في بعض السمات النموذجية للوعي المعاصر وفي بعض الأوجه الموضوعية لواقع الحال..."[*] ولأنه يندرج في الحالة الموضوعية والذاتية، فهـــو بمثابـــة قانون تاريخي وتطوّر للعقليات. فأن يلتزم المرء طريق الحوار معنـــاه انـــه يسير في نهج التاريخ.

إن هذا الأسلوب الذي تتبعه الكنيسة اليوم مع الملحدين ومع غيرهم أجدى بكثير من أسلوب الجدال. فقد يكون أحد الأساليب الفعالة للتبشير بالمسيح إلى جانب الأساليب الأخرى المختلفة. ولقد أعطى وما يزال يعطي نتائج ملموسة بإحداثه تغييراً في المواقف والعقليات وإشاعة جو من الثقة والصراحة وخلق مزيد من الفهم والتفهّم والتقارب والإثراء، وبالعمل على قيام تعاون فعلي بين الأطراف، على المديين القريب والبعيد.

وإذا كانت لنا أمنية نسوقها في نهاية هذا المقال فهي أن نشهد قيام حـــوار حقيقي في كنيسة العراق على الصعيد اللاهوتي والعملي بين الكنائس، وليس فقط الاكتفاء بإقامة صلوات، كما في أسبوع الوحدة.

---

*.الأب جيراردّي "حوار وثورة" ص 226

ء * *

إله يسوع المسيح

إني، مثل غيري، أسمع الناس يتحدّثون وأدع لهم الحرية للتعبير عن آرائهم وأفكارهم، وأحترم هذه الآراء والأفكار حتّى إذا لم تتفق مع مفاهيمي، وأعتبر هذا الاختلاف مصدر غنى وثراء لفكري.

هكذا أصغيت إلى الناس يتحدّثون عن الله لأتعرف على ما يعتقدونه عنه وكيف يعيشون هذا الاعتقاد في حياتهم اليومية، فيكون ذلك منطلقاً لي للتفكير وللوصول إلى اكتشاف الوجه الأفضل لله.

هذا ما أبتغيه في هذه المحاولة. إنها ليست بحثاً عن وجود الله ولا عرضاً تاريخياً أو فلسفياً أو كتابياً حول "مسألة الله"، وإنما هي حصيلة خبرتي مع الناس: ماذا يعتقدون عن الله وكيف يترجمون هذا المعتقد في الواقع؟.

وقد يعجب القارئ إذا ما قلت بأن معتقدات الناس في الله عديدة ومتباينة. فإذا كان المسيحيون، مثلاً يعبرون عن إيمان واحد في قانون الإيمان إذ يقولون "نؤمن بإله واحد"، فهم لم يتخلّصوا، في الواقع، من "الآلهة الأخرى" العالقة في أذهانهم وانفعالاتهم، نتيجة ترسبات من الماضي، من اليهودية والوثنية، وإليكم بعض أوجه هذه الآلهة:

الإله "المسيّر" للكون والبشر:

هو الذي يعطي الأولاد، حسب اعتقادهم، ويحيي ويميت، يغني ويفقر، يمطر ويحبس المطر... هذا الإله حرّ في تصرفه، يميت من يشاء ومتى شاء، يعاند أو يستميل، ينعم أو يتجافى كيفما اتفق وبحسب مزاجه.

لاشكّ أن في أصل هذا الاعتقاد تكمن العقلية التي يعكسها العهد القديم من الكتاب المقدس– ونحن نقرأه ونقبله– فلا عجب أن نتأثر بالمفهوم الذي ينقله عن الله حيث ينصر "يهوه" الشعب في حرب ما، ويثري ويفقر، ويعاقب ويعطي المطر.. أوَلا يهتف المزمّر قائلاَ: "ينشئ السحب في أقصى الأرض ويحدث البروق للمطر ويبرز الريح من خزانته" (مز 134: 7).

ولكن هذا المعتقد يتجاهل، في رأيي، كما قلنا في مقال سابق[*] مفهوم الأبوة في الله، من جهة، ويتجاهل إرادة الله في خلق الكون، من جهة أخرى. فقد وضع الله للكون قوانين تسيّره، وهذه القوانين يحترمها ولا يتدخل فيها إلا في حالات استثنائية نسميها "بالأعجوبة". ولاشكّ أن هذه القوانين إذ تعمل، فإنما الله يعمل بواسطتها وبصورة غير مباشرة، بصفته مصدرها الأول وواضعها.

"إله المنفعة":

وأما الإله النفعي، فنلتمسه ليرزق لنا البنين، ويجنبنا الأخطار لقاء عمل أو نذر نقوم به له. منه نلتمس إخصاب الأرض والحيوانات وحفظ غلاتنا من الأوبئة.. الخ.

هكذا يكون هذا الإله "بين أيدينا" ورهن إشارتنا، نؤثر عليه ليستجيب إلى مطالبينا ورغباتنا، وإذا لم يفعل، فسرعان ما نفقد الإيمان به، بل نتحوّل عنه. انظروا إلى تلك الأم وهي تزور الأديرة وتشعل الشموع من أجل ابنها. وإذا مات ابنها مع ذلك، فتقطع العلاقة بينها وبين الله، وتنقطع عن المجيء إلى الكنيسة، احتجاجاً على الله.

---

[*] "ما وراء الموت" ف.م.، ، أيار 1974"

أن تصلي الأم لولدها فالأمر طبيعي ولا غبار عليه، وقد فعلت كثيرات مع يسوع ذلك، ولكن أن تنقطع عن الصلاة وعن الله، فذلك يدلّ على قلّة الإيمان وعلى المساومة والمصلحية والانتفاعية في أفقر حالاتها بين الإنسان والله، وهي بعيدة كلّ البعد عن العلاقة البنوية التي ينبغي أن تسود بين الله والإنسان.

هذا "الإله الآلي" ليس إلهنا، ومع ذلك لا زال كثيرون يعتقدون بأنه إلهنا نحن المسيحيين.

"إله النقمة":

هو الذي يرسل لنا الحروب والأوبئة والكوارث للبشر لعقابهم وإعادتهم إلى رشدهم، تماماً كما كانت تزعم الآلهة الوثنية قديماً. فنذكر على سبيل المثال استيرة إلهة صور وصيدا التي انتقمت من الملك كامرت بإنزال المرض عليه عندما لم يف بالنذر الذي قطعه للآلهة.

وينسبون هذا الطاعون وذلك المرض، هذه الحروب وذلك الزلزال إلى الله كعقاب على خطايا البشر! ألم يعزى الطاعون الذي ضرب أهل بيت جرماي وآشور ونينوى إلى الله كعقاب منه لكثرة خطاياهم؟! ولا زلنا اليوم أيضاً نتعامل مع هذه العقلية القاصرة.

ولكنّنا نعرف اليوم لماذا تقوم الحروب. إن أسبابها لا تتعلق بإرادة الله وإنما بإرادة البشر. ونعرف كذلك أسباب الأوبئة وكيفية القضاء عليها ومكافحتها، ونعرف لماذا تحدث الكوارث الطبيعية، وكيف أن بإمكان العلماء أن ينبؤا بوقوعها. وهكذا فما نسبه الإنسان إلى الله، كان ينبغي أن يرى فيه يد الإنسان أو الكون والأرض، وإذا كان عجز الإنسان في السابق، يفسّر بعض المظاهر

الطبيعية بنسبها إلى الله، فالعلم اليوم– وهو نتاج العقل البشري الذي منحه الله للإنسان– يتوصل إلى فهم قوانين الطبيعة والسيطرة عليها أحياناً.

"الإله الإرهابي":

هو الإله المتسلط على رقاب الناس، فلا يقيم وزناً لإرادتهم ولا لحريتهم، فيفرض عليهم إرادته فرضاً، بل يستخدم القوة الفعلية من أجل تطبيق شرائعه وأوامره.

هكذا يكون الإله إرهابياً، مخيفاً؛ وعلى هذا الأساس يدعو أصحاب هذا المفهوم إلى أن تبنى علاقة الإنسان معه، فيطبّق الإنسان إرادته قسراً وخوفاً من بطشه أو الزج به في نيران جهنم.

وهناك أوجه أخرى يصورون بها الله على هواهم وبحسب قياساتهم وانفعالاتهم، ولكنّها كلّها غريبة عن الله الذي يكشفه لنا يسوع المسيح في الإنجيل.

إله يسوع المسيح:

إن الله الذي كشفه لنا يسوع المسيح هو قبل كلّ شيء "أب" بكلّ ما تعني الكلمة من أبعاد المحبّة والعطاء والرعاية والحنان والرحمة والتدبير.. وهذا الإله– الأب هو أولاً أبو يسوع المسيح شخصياً، لذا يدعوه دائماً في الإنجيل "أبي" كما يدعو الطفل الصغير أباه "بابا". أما صرخته على الصليب: "الهي لماذا تركتني؟" فهي أصداء للمزمور 22: 2. فالمسيح تحدّث إلى الله وعن الله كما يتحدّث الطفل الصغير إلى وعن أبيه، أعني بالبساطة والثقة البنوية العميقة والحبّ.

ولكنّ إله يسوع المسيح هو في الوقت عينه هذا الله– الأب الذي يلده منذ الأزل، والذي يعطيه الإلوهية منذ الأزل أيضاً، كما يعطيها للروح القدس الذي به يتّحد الأب والابن. وهكذا يكشف لنا يسوع المسيح هوية الأب وسرّ الله وسرّ الثالوث الأقدس. ومار بولس ينقل الصيغة التي تعبر عن هذا الكشف بقوله: "حتّى انكم بنفس واحدة وفم واحد تمجدون الله أبا ربنا يسوع المسيح".

بيد أن الله هو أب للجميع، في الوقت عينه، من حيث هو خالق الجميع. هذه الأبوة الخلاقة تجعله منتبهاً إلى جميع خلائقه بدون استثناء، فكم بالأحرى إلى الإنسان وهو أفضلها وسيّدها وقد خلقه على صورته وعلى مثاله وأشركه في نعمته. وقد أظهر الله قمة هذه المحبّة في يسوع المسيح بتجسّده وأعماله وتعاليمه، يسوع المسيح هذا الذي حمل المحبّة في قلبه لجميع الناس ولاسيّما لصغار هذه الدنيا، للمتواضعين والمساكين والخطأة الذين رأى استعداداتهم لقبول الخلاص والتغيير في حياتهم. فلا عجب أن يهتف يوحنا بعد أن اختبر محبّة الله في يسوع المسيح: "الله محبّة "!.

هذا الإله الأب والخالق والمحرر، أراد الإنسان حرّاً ومسؤولاً، سيّداً على ذاته وعلى الكون، وأراده في الوقت ذاته أخاً للإنسان وليس عبداً: "أنتم جميعاً إخوة" يقول يسوع.

لقد أراده حرّاً في الإجابة على دعوة محبّته، سلباً أو إيجاباً، من دون إكراه، فلأن الله محبّة، ولأنه خلق الإنسان حرّاً فهو يحترم هذه الحرية، إذ أن من طبيعة المحبّة أن تحترم حرية المحبوب، من هذا المنطلق يريد الله أن يحترم الإنسان حرية أخيه، فلا يستعبده أو يستغله أو يجعل منه آلة بين يديه.

وهذا الاحترام لحرية الإنسان نختبره بشكل ملموس في يسوع المسيح الـــذي بسط للناس بشارته الخلاصية وعرض عليهم محبّته دون أن يفرضهما علـــى أحد، بل تركهم أحراراً في أن يتخذوا قرارهم بالقبول أو الرفض. ورفـــض رسالة يسوع المسيح هي كَمَن يرفض الحبّ والنور والحق.

هكذا لم يستخدم المسيح أسلوب القوة لفرض ذاته، ولا حتّى مع معارضيه، إذ نشر تعليمه بقوة محبّته وسخائه وبذله.

بهذا يمتاز الإله الذي كشف لنا عنه المسيح عن سائر الآلهة، وبهذا يمتاز المسيح عن سائر مؤسسي الأديان والمعتقدات الذين قد لا يستبعدون الالتجاء إلى القوة والعنف لفرض آرائهم وبسط نفوذهم.

تلميذ يسوع والإله الحقيقي:

كما حمل المسيح هذا المفهوم عن الله– المحبّـــة وجسّـــده فـــي شخصـــه وتعاليمه وأعاجيبه، كذلك ينبغي على تلميذ يسوع. فبعد أن يكون المسيحي قد طهّر مفهومه عن الله وتوجّه إليه كأب يتوجّب عليه أن يكشف للنـــاس هـــذه الحقيقة، ويجسّدها في أقواله وأعماله، وإلا تعرّض لخطر البقاء في المفـــاهيم الشبيهة بالوثنية عن الله، ولربما حاول أن يعرض صيغة إيمانه على غيـــره بالقوة كما جرى أحياناً في التاريخ. فليس ثمة طريقة أخرى لإشراك الآخرين في إيمانه سوى الشهادة الشخصية المتجسّدة في الالـــتزام الـــواعي والحيـــاة بحسب الإنجيل والاقتناع والإقناع الشخصيين والمحبّة المعاشة، أينمـــا كـــان ومهما كان موقعه في المجتمع، وذلك مثلما فعل سيّده يسوع.

هكذا حمل الإيمان إلى أقاصي الأرض أناس لا يمتلكون مالاً ولا سلاحاً، لا قوة ولا سلطة وإنما تسلّحوا بقوة إيمانهم ولبسوا ترس محبّتهم لشخص حيّ هو يسوع المسيح.. فشهدوا له بالكلام والدم.

في مدرسة يسوع

الحديث عن المدرسة هو حديث عن معلّم وطلاب أيضاً. ومدرسة يسوع هي أكبر وأوسع من أيّة مدرسة أخرى. فهي مدرسة التعليم، والتعلّم على الحبّ بالذات وعيشه، مع ما ينطوي عليه الحبّ من ألم وموت.. ورجاء. هذا ما نتوخّى تبيانه في هذا المقال.

مدرسة يسوع مدرسة للتعليم:

لاشكّ أن يسوع لم يفتح مدرسة عادية ذات غرف وصفوف. فمدرسة يسوع هي كلّ ارض فلسطين طولاً وعرضاً، فلقد علّم في كلّ مكان، في الهيكل، في المجمع، في السهل، في البيت، في المدينة، في القرية وعلى الجبال والطرقات. كلّ هذه الأماكن هي صفوف تصلح للتعليم، كما أن هذه المدرسة ليست لها ساعات معيّنة للتعليم. فقد علّم يسوع في كلّ الأوقات، في الصباح، في المساء، قبل الظهر وبعده.

وكما أن مدرسته كانت تمتد إلى كلّ مكان، فإن جمهوره هو كلّ جمهور فلسطين، وشعبه كلّ شعب هذه الأرض بمختلف شرائحه وفئاته وطبقاته. من الرجال والنساء والأغنياء والفقراء والأقوياء والضعفاء ورؤساء الكهنة والكتبة وعامة الشعب. فتعليمه، إذن، ليس مقتصراً على فئة دون أخرى، وإن كان يتوجه أحياناً إلى فئة أو شريحة معيّنة من الشعب، كالكتبة والفرّيسيّين ورؤساء الشعب، مثل الابنين والكرامين القتلة، مثلاً، موجه إلى الرؤساء (متى 46:21). وأما مثلا الخروف الضال والدرهم المفقود فهما

موجهان إلى الكتبة والفرّيسيّين (لو 2:15) بينما يتوجه مثل الفرّيسي والعشّار إلى الفرّيسيّين الدعّيين (لو 9:18).

ومع ذلك ينبغي لنا الاعتراف بأن هذه المدرسة الواسعة، الكبيرة، محدّدة المعالم، إذ هي مدرسة حياة لا مدرسة معلومات وعلوم. وبخلاف المدارس الأخرى، فإن المعلّم الوحيد فيها هو يسوع المسيح، المعلّم الأكبر والأعظم على الإطلاق. ومن هذه المدرسة يعلّم يسوع تلاميذه من هو الله، ومن هو الإنسان، ويقدّم نفسه فيها كالمثال الأعلى إلى كشف الله الأب، وبالتالي ما يجب أن تكون عليه العلاقة التي تربط بين الإنسان والله: علاقة محبّة بنوية، لا علاقة خوف ورعدة. كما أنه يعلّم في هذه المدرسة القيم الإنسانية التي يجب أن يعيشها البشر: قيم أخوّة واحترام وروح الأسرة الواحدة، ويشجب القيم الأخرى التي تسود العالم كالجشع والطمع وحبّ السيطرة والاستغلال باسم الدين والشريعة. لذا كان المسيح المدافع الأكبر عن حقوق الإنسان. ويؤكد يسوع مراراً بأن تعليمه هذا ليس من عنده، بل من الله. فهو ينقل إلى الناس تعليم الله، إذن أقوال الله، شأن موسى، ولكنّه أعظم من موسى: "إن الكلام الذي أقوله لا أقوله من عندي: وهو أن الأب الذي فيّ يأتي بالأعمال: (يو 14: 10). فبسماع التلاميذ أقوال يسوع، يسمعون أقوال الله الأب ذاته. وأعمال يسوع ذاتها تشهد بصحة أقواله: "صدقوا قولي: إني في الأب والأب فيّ، أو صدقوني من أجل تلك الأعمال" (يو 14: 11). ولكنّ المسيح لم يكتف بالتعليم فقط، بل عاش ما علّم، وعلّم ما عاش.

وإزاء هذا التعليم وقف الناس موقفين متعارضين، موقف القبول وموقف

الرفض. وهؤلاء الذين قبلوا كلام يسوع اعتبرهم من أقربائه ومن أسرته: "إن أمي وإخوتي هم الذين يسمعون كلام الله ويعملون به" (لو 8: 21). ومن هؤلاء مريم أمه نفسها، فأصبحت من أقربائه مرتين. مرة لأنها أمه، ومرة أخرى لأنه قبلت وعملت به، فاستحقت الطوبى على ذلك. فمريم إذن هي أم يسوع وتلميذته في آن واحد، تلك التي قبلت أن تدخل في مدرسة ابنها ومعلّمها!.

وبالإضافة إلى مريم، ثمة آخرون قبلوا هذا التعليم، كالتلاميذ ألاثني عشر وبعض النسوة اللواتي يقدّمهن الإنجيل كتلميذات ليسوع، أمثال مرتا ومريم المجدلية. وحين يلتقي يسوع بهذه الأخيرة في بستان الزيتون غداة القيامة، تدعوه معلّمها، ممّا يدلّ على أنها كانت تعتبر ذاتها تلميذة في مدرسته.

وبعد القيامة، انتمى إلى هذه المدرسة، وما يزال، ألاف الرجال والنساء، بل ملايين من كلّ لون وجنس وقومية. ولكن، مثلما قبل كثيرون هذا التعليم، هناك آخرون قد رفضوه ويرفضونه اليوم.

وممّا لاشكّ فيه أن القبول كان مصدر فرح كبير بالنسبة إلى يسوع. فرح الراعي بعودة الخروف الضال (لو 15: 7 و 22). كما كان الرفض مصدر ألم له. أما الرفض فعديدة أسبابه، منها الغنى وحبّ المراكز أو الملذات الأنانية، أو التصلّب.

إن هذا الرفض هو الذي شكّل صليب المسيح، وبقدر ما تكون للإنسان طاقة على الحبّ، بقدر ذلك يتألم، وقيمة الصليب لا تقاس بمدى العذاب الذي يعانيه المرء، وإنما بمدى طاقته على الحبّ في هذا الصليب. ولذا، فإذا كان أناس قد ذاقوا عذابات أشد وأمر من يسوع– كالقديس بولس وغيره– فإن

عذاباتهم وشدائدهم لا ترقى إلى مستوى عذاب يسوع وألمه بسبب طاقة يسوع التي لا يدانيها أحد على الحبّ والعطاء.

التلاميذ في مدرسة يسوع:

وأما ما يميّز دخول التلاميذ في مدرسة يسوع، فهو، ولاشكّ، دعوته إيّاهم إلى الدخول في هذه المدرسة، أي بإتباعه ليس فقط في تعليمه، بل في محبّته والتعلق به حتّى الموت، وإلى حدّ محبّة الأعداء.

فالدعوة إذن قد سبقت الدخول. وقد لبى التلاميذ هذه الدعوة دون أن يعلموا ما ينتظرهم من أفراح وأتراح، وأحزان وآلام، وضيقات واضطهادات، ورفض وصلب وموت.

وقد تم الدخول في هذه المدرسة بصورة بطيئة وتدريجية، ذلك أن التلاميذ لم يكونوا يفهمون دوماً معاني أقوال يسوع وأعماله وأمثاله. كما أن هذا التعليم كاد يصطدم بالمفاهيم المشوّهة أو الناقصة التي كانوا يحملونها. لذا وجد يسوع مشقة كبيرة لإفهامهم. فغالباً ما نراه يوبّخ تلاميذه قبل القيامة على بطء فهمهم وقلة إيمانهم. فهذا الدخول، إذن، لا يخلوا من عقبات ومن عوائق شخصية وخارجية، كنقص في الإيمان أي في الثقة، أو في التقبّل، سواء ما يخص التلاميذ أم بالنسبة إلى كلّ إتباع يسوع، وكأني بتلك العقبات هذه اللجج التي كانت تهدّد السفينة بالغرق إذ كان يسوع نائماً فيها.

ولكنّ ما ساعد التلاميذ كثيراً على فهم هــذا التعليم، هــو حدث القيامــة وحلول الروح القدس. هذا الروح الذي نوّر عقولهم وقلوبهم وأوضح لهم معاني أقوال يسوع وأعماله وأمثاله.

ولكنّ الرسل لم يكتفوا بان يتعلّموا من يسوع المعلّم، وإنما علّموا هم أيضاً بدورهم، وذلك عملاً بوصية المسيح: "إني أوليت كلّ سلطان في السماء والأرض. فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس، وعلّموهم أن يحفظوا كلّ ما أوصيتكم به" (متى 28: 19).

وبسبب هذا التعليم لاقوا الرفض هم أيضاً، فعانوا الألم واختبروا الموت، ليس الموت الطبيعي حسب، وإنما الموت اليومي الدائم، وقد تحملوا كلّ العذابات والألم والموت بفرح ورضى، لأن يسوع كان يمثّل في نظرهم القيمة الكبرى، لهم وللآخرين.

ومنذئذ ما فتئ كثيرون من الناس يدخلون في مدرسة يسوع. وهكذا يصيرون تلاميذ له، جيلاً بعد جيل، يتعلّمون ويعلّمون. يتعلّمون منه الحبّ، ويذهبون في حبّهم حتّى الألم والموت، مثل يسوع ومن أجل اسم يسوع وإنجيله.

نحن في مدرسة يسوع:

وبالروح ذاتها التي دخل بها التلاميذ والنسوة في مدرسة يسوع، هكذا علينا أن ندخلها نحن أيضاً، فنصغي إليه وإلى تعليمه إصغاء التلاميذ الواعين النشطين.

وبسماعنا كلام يسوع والعمل به نصير من أقرباء يسوع ومن أسرته الروحية الكبيرة المنتشرة في العالم كلّه، وبقدر ما نسمع كلامه ونعمل به، بقدر ذلك نصير تلاميذ وتزداد درجة قرابتنا له، هذه القرابة الروحية التي تسبق القرابة الجسدية في عمقها وفاعليتها. وبذلك نشبه هذا الرجل الحكيم

الذي بنى بيته على الحجر: "فمثل من يسمع كلامي هذا فيعمل به كمثل رجل عاقل بنى بيته على الصخر، فنزل المطر وسالت الأودية وعصفت الرياح، فثارت على ذلك البيت فلم يسقط، لأن أساسه على الصخر" (متى 7: 24-26). وأما من يرفض الاستماع إلى يسوع وإلى أقواله، فهذا يعني إنه يرفض أن يصير تلميذاً حقيقياً للمسيح.

غير أن خطأ المسيحيين الكبير هو توقفهم عن هذا الاستماع والتعلّم لاعتقادهم بأن ما أخذوه في مرحلة من مراحل حياتهم يكفيهم مؤونة الاستزادة منه، في حين أن على تلميذ يسوع أن يستمر على التعلّم والتعمّق في معرفة يسوع المعلّم والتغلغل في مدرسته.

وفي الوقت الذي يتعلّم فيه تلميذ يسوع، عليه أن يعلّم أيضاً بدءاً من أعضاء أسرته، ثم ضمن الكنيسة أي الجماعة المسيحية، وامتداداً إلى من هم في الخارج.

ونظرًا إلى أهمية هذا التعليم، على المسيحي أن يكون مستعداً للتضحية براحته ووقته من أجل اسم يسوع.

ولكنّ التعليم نفسه غير كافٍ ما لم يقترن بالعمل، كما فعل يسوع إذ كان يعلّم ويعمل معاً، كما جاء في مقدّمة القديس لوقا التي يوجهها بشخص تاؤفيلس إلى كلّ مسيحي إذ يقول: "رويت في كتابي الأول، يا تاؤفيلس، جميع ما عمل يسوع وعلّم، منذ بدء رسالته إلى اليوم الذي فيه رفع إلى السماء" (أعمال 1: 2). فقد كان يسوع "يسير في الجليل كلّه يعلّم في مجامعهم ويعلن بشارة الملكوت ويشفي الشعب من كلّ مرض وعلّة" (متى 4: 24). وهكذا يكون شعار المسيحي، كلّ مسيحي، أن يتعلّم ويعلّم ويعمل بوضع طاقاته

وامكاناته ومواهبه في خدمة الكنيسة وتحت تصرف معلّمه ومثاله يسوع المسيح.

* * *

كيف نشهد ليسوع المسيح اليوم؟

ماهيّة الشهادة:

الشهادة، في اللغة، اسم من "شهد له أو عليه". ويشهد شهادة عند الحاكم لفلان أو على فلان: أدى ما عنده من الشهادة وشهد شهود على كذا! أخبر به خبراً قاطعاً. والإخبار بالشيء هو الإعلام بحقيقته ونقله والتحدّث به (المنجد في اللغة ص 106). فالشهادة إذن، كما نرى، تتألف من عنصرين مهمّين مرتبطين وغير منفصلين: عنصر المشاهدة أو الرؤية وعنصر الإخبار. وقد لا تكون الشهادة بالضرورة رؤية حيّة لموضوع مادي وإنما رؤية إيمانية لموضوع وجداني. كأن يكون مبدأ أو قضية أو شخصاً رآه بعين الرؤية الإيمانية فشهد له.

من يشهد...؟

وانطلاقاً من هذا التعريف المقتضب للشهادة بوسعنا القول إن كلّ المؤمنين كانوا وما يزالون شهوداً ليسوع المسيح. إذ يتوفر لديهم الشرطان الأساسيان في الشاهد، ألا وهما المشاهدة والإخبار. وبينما تنطبق هذه التسمية بمعناها الشمولي والعام على التلاميذ، شهود عيان الكلمة (لو 1: 1) فهي تنطبق على المؤمنين اليوم من زاوية الرؤية الإيمانية فقط، فمن المعروف أن التلاميذ كانوا من ذوي الحظوة برؤية حسّية ليسوع المسيح، كما كتب القديس يوحنا في رسالته الأولى قائلاً: "ذاك الذي كان منذ البدء، ذاك الذي سمعناه ذاك الذي رأيناه بعينينا، ذاك الذي تأملناه، ذاك الذي لمسته يدانا من كلمة

الحياة، لأن الحياة تجلّت فرأيناها ونشهد لها ونبشّركم بتلك الحياة الأبدية التي كانت عند الأب فتراءت لنا. ذاك الذي رأيناه وسمعناه، نبشّركم به لتشاركونا أنتم أيضاً" (1 يو 1–3).

لقد كانت هذه الرؤية الحسّية، ولاشكّ، في أصل نشأة الإيمان الذي شقّ طريقه إلى قلوبهم، وما أنفك ينمو ويترعرع إذ رأوا عجائب يسوع وسمعوا أقواله، ممّا لم ينطق به أحد (يو 7: 46). بيد أن إيمان التلاميذ هذا، إن هو إلا إيمان أولي، ناقص، غامض، ملتبس وممزوج بالشك واليقين. وهو لن يتوضّح ويتعمّق ولن يتقوّى ويترسّخ إلا بالقيامة وعلى ضوئها.

وانطلاقاً من القيامة، هذا الحدث الجوهري، بدأ التلاميذ يلقون على يسوع نظرة جديدة ومغايرة وصلت بهم إلى إيمان قوي، أصيل، ناضج محرّر. فلم يعد يسوع المسيح، بعد القيامة، في نظر الرسل، مجرّد معلّم أحبّوه وإنما رباً ومسيحاً آمنوا به. ولم يعودوا تلاميذ فحسب، وإنما أصبحوا رسلاً وشهوداً للقائم من بين الأموات "وانتم شهود على ذلك"(لو 47:24). ومذ ذاك أدركت الجماعة المسيحية الأولى بان هذا الإيمان يتطلّب ضرورة شهادة للمسيح، هذه الشهادة التي انضمّت إلى شهادة أخرى وهي شهادة الروح القدس ليسوع المسيح.

وانطلاقا من هذا الإيمان، يصبح كلّ المؤمنين في كلّ عصر ومصر شهوداً ليسوع، فالشهادة تُولد مع الإيمان، إذ هي حبّ وتقدير عنهما. وهكذا يغدو كلّ المؤمنين اليوم شهوداً، شان المؤمنين بالأمس. لم يروه ولا يمكن أن يروه بعيون الجسد بما انه ممجّد، إنما راؤه ويرونه بعيون الروح و الإيمان. وهذه الرؤية الإيمانية، كما يقول القديس يوحنا، ليست أقل من الرؤية الجسدية

بل هي أكثر كمالاً، إذ تستند على كلمة الله:"طوبى للذين يؤمنون ولم يروا"(يو 29:20).

لأيّ مسيح نشهد؟

تلك هي المسألة كلّها: هل نشهد لمسيح بعض اللاهوتيين المنقسم إلى طبيعة واقنوم وشخص؟ وهل نشهد لمسيح الكنائس، أم لمسيح المسيحيين، وملاذهم إبان الضيق والشدائد؟ هل نشهد لمسيح الفلاسفة؟ أم لمسيح الإنجيل؟.

إنه لمن الضروري بمكان أن نعرف إيماننا المسيحي، ونعرف المسيح بعمق، كي نؤدي شهادة حسنة. فبعض المفاهيم والتصوّرات والصور–التي تكوّنت عن الإيمان والمسيح–وإن لم تكن خاطئة بالضرورة، وإنما ناقصة قد تسيء إلى هذه الشهادة، لارتباطها بحضارة معيّنة، إذ لا يمكن، على سبيل المثال، الخلط بين الإيمان والتعبير عنه. فالإيمان شيء والتعبير عنه شيء آخر. كما لا يمكن خلط الإيمان باللاهوت. فالإيمان هو قبول الحقائق الإلهية الموحاة التي قد يقبلها عقلنا أو يرفضها، في حين أن اللاهوت هو الجهد العقلاني الذي يبذله المرء سعياً إلى إدراك الحقيقة الإلهية. وقد يخطئ اللاهوت في حين أن الإيمان لا يمكن أن يخطئ.

كما انه لا يمكن الخلط بين المسيح في حقيقته وجوهره، وبين المفاهيم السائدة والصور والتعابير الحضارية عنه. إذ أن الفحوى والجوهر شيء، والصيغة واللغة شيء آخر.

ولكي تكون الشهادة مقبولة، نحن مدعوون إلى أن نعيد النظر، بين حين وآخر، بصورة جذرية، في مفاهيمنا وتصوّراتنا وصورنا الحضارية، التي،

وإن لم تكن خاطئة، كما قلنا– قد يكون عفا عليها الزمن بسبب زوال تلك الحضارة. وهكذا قد تخدم لغة حضارية معيّنة هذه الشهادة في عصر ما، وقد تسيء إليها في عصر آخر. فوجب استبدال لغة تلك الحضارة، والإبقاء على جوهر الإيمان. ويدعونا العهد الجديد عينه، (الذي ينتمي إلى حضارة معيّنة) إلى مثل هذه الإعادة الجذرية للنظر في صورنا وتعابيرنا وتصوّراتنا، إذ أعاد الإنجيل النظر ببعضها على حساب صور وتشابيه أخرى، فقرأ المسيحيون الأولون العهد القديم بمنظار جديد تماماً.

إلى من نشهد؟

إن الشهادة التي يجب أن يؤديها المؤمنون عن المسيح موجّهة إلى العالم كلّه، الأمر الذي ينفي حصرها أو اقتصارها على فئة أو طبقة أو شريحة معيّنة. فكما أنها مهمّة الجميع، فهي للجميع، من هنا طابعها الشامل للعالم، ولكن يستحيل أداء هذه الشهادة ما لم يعرف المرء واقع هذا العالم من جميع جوانبه: الدينية، الاقتصادية، الاجتماعية والعلمية، وإطاريه الحضاري والتاريخي.

والحال أن ما نعرفه عن هذا العالم هو أنه يتسم بالثنائية والتعددية: فيه إيمان وإلحاد، وحدة وانقسام، غنى وفقر، عدل وجور، حق وباطل، خير وشر، نور وظلمة، تطوّر وتخلّف، سلام وحرب، حرية وعبودية، استقرار واضطراب بسبب النزاعات والصراعات العرقية والدينية والطائفية. وفيه أيضاً شعوب وأمم وأعراق واتجاهات وأحزاب وأديان. لن يولد العالم الذي نتمناه طالما لم يتحرر تماماً.

هذا هو العالم الذي على المسيحيين أن يحملوا إليه الشهادة، ويؤدوها له بفرح، محاولين إشراكه في إيمانهم. فلئن تراجع الإلحاد بوجهه النظري، إلا أنه عملياً باقٍ، جنباً إلى جانب الإيمان.

إننا نشهد بإيماننا لكلّ المؤمنين، على مختلف مذاهبهم، ممن يتوفر لديهم الاستعداد الطيب والإرادة الصالحة. ونشهد أيضاً للمسيحيين، ولاسيّما لأولئك الذين أصبحوا غرباء وبعيدين عن المسيح بغية إنماء وتعزيز الجميع، كما قال يسوع لبطرس: "وأنت متى عدت ثبت إخوتك" (لو 22: 32). وهنا يجب التركيز على دور الشباب في أداء هذه الشهادة للجميع، ولاسيّما لأقرانهم، كما يؤكد على ذلك الفاتيكاني الثاني في وثيقته: "رسالة العلمانيين": إذ يقول: "ويجب على الشباب أن يكونوا أول الرسل تجاه الشباب" (مرسوم رقم 12).

ولما كانت الشهادة تتضمن كلّ قيم ومبادئ الحق والأخوّة والمحبّة والسلام والوحدة والعدل والتضامن والرحمة... فلا بد للشاهد للمسيح أن يعايش هذه القيم أولا وأن يقف إلى جانبها بقوة مع كلّ ذوي الإرادة الصالحة، من أجل اجتثاث واقتلاع كلّ جذور وبذور أسباب الانقسام والخصام والتخلّف والفقر والظلم. ذلك أن وجود مثل هذا الواقع، الذي يكرّسه بعض المسيحيين، يشكّل عائقاً جدياً أمام قبول هذه الشهادة.

وأما الإطار التاريخي والحضاري لعالمنا اليوم، فهو يختلف جذرياً عن الأطر التاريخية والحضارية السائدة سابقاً. فلقد تبدّل الزمن، وسادت حضارة أخرى تعبّر عن نفسها بلغة أخرى. لذا وجب على المسيحيين أن يقدّموا هذه الشهادة بلغة إنسان اليوم وحضارة اليوم وليس بلغة وحضارة أخرى غريبة عنه، وإذن غير مفهومة وغير مقبولة عن إنسان اليوم.

طرق أداء الشهادة:

ثمة طرق متنوّعة يمكن للمسيحي أن يشهد من خلالها ليسوع المسيح. الطريق الأول هو شهادة الحياة، وذلك بالسعي إلى معايشة قيم المسيح والإنجيل من حبّ وإخلاص وأمانة وتسامح وغفران وتضامن وتضحية وحنان ورحمة وسلام وحقّ، بعيداً عن الكذب والرياء والخداع والخيانة التي ينبغي للمسيحي أن ينتصر عليها هو في داخله، وثم في العالم. وهكذا يكون شاهد انتصار للقيم الإيجابية وشاهد انتصار على القيم السلبية التي أخذت تسود مجتمعنا في الآونة الأخيرة وبسبب الظروف الراهنة التي نمر بها ونعيش فيها.

الشهادة الثانية هي شهادة الكلام ولاسيّما الشهادة بالحوار الذي يقيمه المسيحي مع الطرف الآخر، حيث يطرح كلّ طرف على الطرف الآخر ما يعتقده، ويسعى الطرف الآخر إلى تفهّمه وصولاً إلى فهم أفضل وإلى تغيير في الموقف والأحكام من دون أن يكون الطرف الآخر مجبراً على الاعتقاد بطروحات أو قناعات الآخر. وهكذا يعرض المسيحي ولا يفرض، ويطرح ما لديه من طروحات وقناعات إيمانية، ويسعى إلى الإجابة عن أسئلة الطرف الآخر من دون طعن أو جرح أو مسّ بمعتقدات الطرف الآخر في جو من الصراحة والموضوعية والاحترام المتبادل، الأمر الذي يتطلّب منه التسلّح بالإيمان والثقافة لئلا يبدو هزيلاً وسطحياً وعاجزاً أمام الطرف الآخر. وتشمل شهادة الكلام هذه، الوسائل الإعلامية والفنية الحديثة وجميع تقنيات الاتصال (الصحافة، النشر، الوسائل السمعية والبصرية) لإيصال البشرى الإنجيلية. وهناك المشاركة الفعلية أيضاً والمباشرة في أنشطة التثقيف

المسيحي والتنشئة الدينية وتهيئة الموعوظين والإسهام في خدمة الكنائس الأخرى عن طريق الدعوات الكهنوتية والرهبانية والعلمانية المختصة.

النوع الثالث هو شهادة الدم. وهذه نتيجة طبيعية وحتمية للإيمان والحبّ العميق والقوي الذي يكنّه المسيحي للمسيح، إذا ما تعرّض للاضطهاد والموت. والمقصود به استعداد المسيحي وقبوله ذلك فعلاً، إذا ما اقتضاه الأمر، في سبيل الإيمان بالمسيح، مبيناً على هذا النحو بأن شخص يسوع المسيح أغلى قيمة من حياته.

ولا عجب في ذلك، فهو على غرار يسوع المسيح الشاهد والشهيد وعلى غرار كنيسة المشرق الشاهدة والشهيدة، تلك الكنيسة التي أعطت قوافل من الشهداء. المسيحي إذن، شاهد وشهيد، ليس فقط في موته الطبيعي وإنما أيضاً في موته اليومي والدائم من أجل المسيح.

* *

يسوع المسيح تحرير وخلاص

طالما نقرأ في الكتاب المقدس عن موضوع التحرير والخلاص، كما في كتب أديان أخرى، إذ هي فكرة قديمة وسائدة. وسبق وأن تناولناها في أحاديثنا الخاصة وكتاباتنا، وتطلّعنا إلى تحقيقها بلهفة وشوق، بل اختبرناهما في لحظة من لحظات حياتنا كالشفاء أو النجاة من خطر أو لدى غفران الخطايا في سر التوبة والمصالحة.

في هذا المقال نتناول الموضوع، ليس من الزاوية التاريخية أو الكتابية، إنما هو محاولة لاهوتية حول شخص يسوع المسيح المحرّر والمخلّص.. فنرى أولا معنى كلمة التحرير والخلاص، ثم كيف أن يسوع المسيح اليوم هو تحرير وخلاص، وأخيراً نتناول مشاركتنا في هذا التحرير والخلاص.

معنى التحرير والخلاص*:

إن كلمة "التحرير" تعني عموماً، استعادة الحرية المستلبة والمفقودة من جراء الاستعباد، أيّاً كان نوعه سياسياً أو اقتصادياً أو دينياً. وأما كلمة "الخلاص" فهي أشمل بكثير إذ تحتوي، بالإضافة إلى معنى وبعد "التحرير". معاني وقيم الإنقاذ، الفداء، الشفاء، النصر والسلام. وكلّ قيمة من هذه القيم تشير إلى جانب من الخلاص، وتحدد عناصر طبيعته.

واقع هذه القيم والمعاني:

*.انظر الخلاص في معجم اللاهوت الكتابي ص 321

لقد تعرّضت هذه القيم، عبر مسيرة الإنسان الشاقة، إلى خطر ضياعها واهتزازها لأسباب مختلفة كالاستعباد والمرض والجهل والتخلّف والحرب وإفرازاتها والخطيئة وما تسببه من موت روحي وهلاك. وبهذا الضياع يفقد الإنسان ذاته فيكون عبداً أو ضحية، وآلة ليس غير، ومتى ما انحط الإنسان كان أتعس الخلائق واوضعها.

تدخّل الإنسان:

وممّا لاشكّ فيه، أن هذه الحالة استدعت وما زالت تستدعي ضرورة تحرير الإنسان وخلاصه. وهذا شأن يعود، في بعض أوجهه، إلى الإنسان نفسه، كالجانب الطبيعي والاقتصادي والاجتماعي والسياسي. فكم من آفات وأمراض قضى عليها الإنسان عن طريق الطب، وكم من دول وحكومات، كانت رازحة تحت نير الاحتلال، نالت استقلالها السياسي والاقتصادي، وكم من أناس تحرروا من ربقة العبودية! لكن من مفارقات هذا الزمان، هي أن الإنسان، ما أن يتحرر أخوه الإنسان، حتّى يقوم مرة أخرى باستغلاله ونهب ثرواته بسبب أنانيته ومصالحه الآنية. بيد أن الإنسان يبقى عاجزاً عن تحقيق تحريره وخلاصه من الخطيئة وذيولها ومن الموت وعواقبه. وسيبقى عاجزاً عن تحقيق السعادة الحقيقية، النابعة من داخله، لأنه سيبقى غير قادر على تحقيق كلّ رغباته وطموحاته.

التدخّل في شخص المسيح

وهنا تؤكّد العقيدة المسيحية مسألة أن إنجاز مثل هذا الخلاص هو بيد الله وحده، فنتناول تدخّل الله الفعّال في التاريخ البشري. هذا التدخّل، الذي أتخذ أنواعاً كثيرة لصالح تحرير الإنسان، وذلك بمبادرة مجانية لكونه الإله المحبّ، الحنون والرحيم. فمثلما حرّكه حبّه كي يخلق الإنسان على صورته ومثاله، هكذا حرّكه الحبّ ذاته من أجل تحريره، فإرادته هي ألا تتعرّض تلك الصورة للتشويه والفقدان، بل تبقى ناصعة أصيلة أبداً.

كما ترى المسيحية أن أكبر تدخّل لله كان تدخّله في التاريخ البشري، ملبّياً كلّ الانتظارات والآمال المعقودة عليه، وذلك من خلال كلمته المتجسّد "والكلمة صار جسداً" (يو 1: 14)، أي نصب خيمته بيننا، فصار واحداً منا، شبيهاً بنا في كلّ شيء ما خلا الخطيئة. جاء الكلمة، يسوع المسيح، نبياً بعد كلّ الرسل والأنبياء وأعظمهم. جاء إنجيلاً، إذ ليس في الإنجيل، قبل كلّ شيء كتاباً نقرأه أو نسمعه، وإنما هو شخص المسيح عينه، إنجيل الله. فلم يكن معنى الإنجيل يتعدى سابقاً معنى الخبر السار، كعودة المنفيين إلى ديارهم، بل أصبح هذه المرة، شخص يسوع المسيح. كتب البابا الراحل بولس السادس، في رسالته الموسومة "البشارة في عالم اليوم"، مذكراً الأساقفة كثيراً بهذه الحقيقة: "إن يسوع نفسه، إنجيل الله، هو أول وأعظم مبشّر، ولقد ذهب في القيام برسالته حتّى النهاية والكمال، مضحّياً بحياته الأرضية". ولأن يسوع المسيح، كان ولم يزل، كلّ هذا، بل أكثر من هذا، فهو المحرّر والمخلّص إلى يومنا، لإنسان اليوم والغد، ولاسيّما للفقير والخاطئ والهامشي.

أجل، كان يسوع تحريراً وخلاصاً لإنسان الأمس الرازح تحت نير الشريعة ووطأة الخطيئة والظلم والشر والموت، ضحية البنى الاجتماعية والدينية السائدة آنذاك. وقد فعل يسوع كلّ ذلك، مدفوعاً بحبّ كبير كحبّ الله للإنسان، كلّ إنسان وكلّ الإنسان، هذا الحبّ كان وراء تحريره وخلاصه كما كان وراء تجسّده. إنه خلاص وتحرير إنسان اليوم أيضاً، ذلك أن المسيح حاضر اليوم معنا وفينا، وهو من ثم معاصر لزماننا كما لكلّ الأزمان، إذ هو سيّد الأزمان. فلا يقتصر تحرير المسيح على إنسان الأمس، شأن الأمراء والأباطرة والملوك وإنما لإنسان اليوم كما لإنسان الغد بمصيره النهائي الأخير، بواقعه وفي سياقه التاريخي والحضاري والسياسي والاجتماعي، وهكذا يكون المسيح خلاصاً وتحريراً راهناً: "اليوم ولد لكم مخلّص" (لوقا 2: 11) وعمله الخلاصي آني وحالي: "اليوم تم الخلاص لهذا البيت..." (لوقا 19: 9).

أما الهدف الذي توخّاه ويتوخّاه المسيح فيتمثّل، بامتلاك الإنسان ذاته بل ملء إنسانيته، وهكذا يمسي إنساناً حقيقياً، أصيلاً وكاملاً، لا إنساناً مزيفاً، مستغلاً وناقصاً. فيكون ابناً لا عبداً ذليلاً. هذا هو المنهج الجديد الذي دعاه المسيح في الإنجيل "ملكوت الله" أو "ملكوت السماوات". ويمسي هذا المنهج شرعة ودستوراً. ذلك أن الخلاص، في معناه العميق، إن هو سوى عهد بنوة وعدل وحبّ وسلام وحقّ وأخوة ورحمة وحرية وحنان ومساواة. وبهذا العهد الجديد نشهد قيام عالم جديد مبني على هذه القيم والأسس التي ترسو على دعامة من نظرة جديدة إلى الإنسان، وعلاقة جديدة بين الأفراد والجماعات. وما الأقوال التي فاه بها يسوع، والأعمال التي قام بها تجاه معاصريه،

كالتطويبات وغفران الخطايا وقبوله الخطأة وشفائه المرضى وإقامة الموتى، غير تعبير رمزي ودليل نبوي على أن عهد الخلاص والتحرير قد بدأ. وبداية الإنسان الجديد والعالم الجديد مبنية على زوال الكراهية والأحقاد و "الحرومات" و "التطاحن" والفوارق والمظالم، وهي مبنية كذلك على شروق شمس العدالة والحرية والحقّ والمحبّة والأخوّة. ولا يبقى المرض والفقر والجهل، آفات يعززها الظلم والقمع والاستضعاف. فالتحرير والخلاص هما عدو كلّ بؤس، كما النور عدو كلّ ظلام.

ويندرج موت المسيح وقيامته في سياق التحرير هذا، ذلك أن القيامة انتصار حاسم على الإنسان والعالم القديمين الخاضعين للموت والخطيئة وانتقال من الظلمة إلى النور، ومن الخطيئة إلى النعمة، ومن الموت إلى الحياة، هذه الحياة التي بدأت بالمسيح تحمل طعمها وبذرتها منذ الآن.

الإنسان ومسيح التحرير والخلاص:

في الواقع، لا يكون المسيح تحريراً وخلاصاً فعلياً، كاملاً وشاملاً لإنسان اليوم والغد، وما وراء هذه الحياة، إلا إذا قبله بالإيمان، وقبل ببشراه طريقاً إلى هذا الخلاص وعاش بمقتضى هذا القبول. فلا خلاص وتحرير فعلي خارج هذا القبول الواعي والحر. هذا القبول، الذي ينبغي أن يزداد دوماً عمقاً وقوة ونمواً، فالخلاص يكون بقدر القبول.

والمؤمن الذي تحقّق له الخلاص بالرب يسوع المخلّص، وجب عليه الاضطلاع بمسؤوليتين: الأولى هي المحافظة على الخلاص الذي تحقّق له، ببقائه أميناً للمسيح ولمنهجه، الأمر الذي يتطلّب سعياً مستمراً ضد كلّ شر، ولاسيّما الخطيئة بكلّ أنواعها، فيستأصلها من حياته ومن حياة إخوته

المؤمنين، حين يتعرّض الخلاص للخطر. والثانية تقوم على إسهام المؤمنين ولاسيّما الشباب منهم إسهاماً فعلياً في تحرير الإنسان من خلال عيشهم إيمانهم أمام العالم، فيتغلغل هذا الإيمان في كلّ ميادين الحياة. فمن خلال بناء ملكوت الله على الأرض، وكذلك من خلال محاربة الشرور، يتحقق الخلاص ويأتي ملكوت الله على الأرض، السنا نقول في قانون الإيمان: "من أجلنا ومن أجل خلاصنا نزل من السماء"؟.

* *

المسيح هو نحن جميعاً

في حياة يسوع المسيح بعدان متكاملان ومتلازمان: البعد التاريخي، والبعد السري أو الرمزي. وفي المحاولة التالية سنعمل على إلقاء الضوء على هذا البعد الأخير حيث يجد المسيح امتداد شخصيته ورسالته في شخص المؤمنين به.

يسوع التاريخ:

نقصد بعبارة "يسوع التاريخ" هذا الإنسان، يسوع، الذي ظهر في زمان ومكان معيّنين وانتمى إلى شعب معيّن وحضارة معيّنة. والزمان هو قبل ألفي عام، في عهد أوغسطس قيصر روما وهيرودس الملك الملقّب بالكبير. والمكان هو فلسطين، المستعمرة الرومانية والشرقية الانتماء، حيث ولد من امرأة هي مريم من ذرية داؤد. نشأ وترعرع في ناصرة الجليل ككلّ الأطفال: "وكان الطفل ينمو ويترعرع ويمتلئ حكمة وكانت نعمة الله عليه"(لوقا 4:2)، كما أنه عاش إنساناً بين الناس وككلّ الناس، ماخلا الخطيئة إذ يقول لليهود: "من منكم يستطيع أن يثبت عليّ خطيئة" (يو 46:8). وهكذا أحبّ وجاع وعطش وفرح وحزن وتألم وبكى وأخيراً مات.

في الثلاثين من عمره جمع حوله أثني عشر تلميذاً من مختلف الأمزجة والميول، من مناطق اليهودية والجليل اللتين كانتا مسرح تحركاته ونشاطه حيث أخذ يعلّم الجماهير "إلى اليوم الذي فيه رفع إلى السماء" كما جاء في شهادة لوقا (أعمال 1–2).

أجل، لقد كان"التعليم"– سواء بالأقوال أو الأمثال– هو الإطار الذي أختاره للاتصال بالجماهير، وقد تعمّد التوجه بتفضيله إلى الفقراء وصغار الناس، حيث كان يجد له فيهم أذاناً صاغية، بينما جذب إليه نقمة الطبقة المتنفّذة لفضحه أساليبها الملتوية واستغلالها لطيبة الناس. ولقد علّم يسوع في الهيكل وفي البراري والجبال وقرب موارد المياه وفي القرى والمدن والأرياف (متى 35:9). شفى المرضى وأقام الموتى، ومنح الغفران للخطأة وأعاد الثقة والحياة والاعتبار إلى كلّ المنبوذين والمستضعفين. لم تغره مظاهر السلطة والجاه، ولم تثنه مقاومة السلطة الدينية ونكرانها عن الدفاع عن حق الضعيف والأرملة والطفل والخاطئ، ولا توقف– تحت أيّ طائل– لدى مظاهر التديّن والدين، بل اخترق الإنسان إلى الجوهر وقال بان الله أب محبّ للجميع،وليس ثمة طبقية في الانتماء إليه ولا وصيّ على العلاقة معه سوى نقاء القلب وتواضع النفس .

هذا كلّه كان في أصل غيرة وحسد الأحبار والفرّيسيّين من يسوع، وفي أصل خوفهم من فقدان مراكزهم ومناصبهم 0"فعقدوا مجلساً وقالوا :ماذا نعمل؟ وهذا الرجل يأتي بآيات كثيرة. فإذا تركناه وشانه آمن به جميع الناس فيأتي الرومانيون فيدمرون حرمنا وامتنا"(يو 11 :48).

لقد كانت خطيئة الأحبار والفرّيسيّين،هذه الخطيئة التي يسميها الإنجيل "العمى"، وقد حالت دون اعترافهم بيسوع "مسيحاً" و"رباً" تؤيده يد الله. ولكن، إذا لم يستطع يسوع شفاء هؤلاء من عماهم – لرفضهم ذلك أساساً– فقد استطاع أن يفتح عيون العميان،عيون الجسد والنفس بشفائهم من المرض ومن الخطيئة على حد سواء – وكانت الخطيئة هي سبب المرض بحسب

اعتقاد اليهود آنذاك – وبهذا الشفاء رأى الفقراء والوضعاء فيه "المسيح الآتي بروح الرب ليبشّر المساكين وينادي للأسرى بالتخلية وللعميان بالبصر والمرهقين بالحرية" (لو 4: 18).

ولعل أكبر وأعظم عمل قام به المسيح هو تحريره الإنسان من مفهوم معيّن ضيّق عن الله وعن الإنسان: "أنتم جميعاً إخوة" تلك كانت ثورة يسوع إذ ساوى الجميع في الكرامة. ولقد أدرك القديس بولس هذه المساواة فأكّد عليها في رسالته إلى أهل غلاطية: "فلم يبق بعد يهودي أو يوناني، عبد أو حر، ذكر وأنثى، لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع" (غلا 3: 28).

إن أبوّة وبنوّة الإنسان هما في قلب رسالة يسوع المسيح، وفي قلب حياته وتفكيره. وبهذا الكشف، وبالتالي بهذه الرؤية، لم يعد الإنسان "عبداً" ذليلاً لله، بل ابناً محبوباً وحراً، وبالأكثر ليس عبداً لأخيه الإنسان وإنما أخاً سيّداً، فليس أشنع من النظر إلى الإنسان والتعامل معه بغير هذه النظرة الصحيحة كما حرّرنا المسيح من عبودية أخرى ألا وهي عبودية الحرف. ونتيجة لذلك لم تعد العلاقة التي تربط الله بالإنسان والإنسان بأخيه الإنسان مبنية على الخوف أو المصلحة الأنانية، وإنما على المحبّة والاحترام المتبادل.

هذا الموقف الجديد نلمسه بوضوح في علاقات المسيح مع الجماهير، حيث يمثّل وجه الله المتجسّد. فلقد أحبّ الجميع بعمق. أحبّ الرجال والنساء والشيوخ والشباب والأطفال والصغار. وقد رَوْحَنَ الدين بحيث جعل العبادة الحقّة هي التي تصدر من القلب. "فالساجدون الحقيقيون لله بالروح والحقّ يسجدون"، ولم يعد الهيكل الموضع الأوحد للعبادة، ولم يعد جبل مقدس، حتّى وإن كان جبل صهيون أو جرزيم، فكلّ موضع مقدس وبالإمكان التوجه فيه

إلى الله. أبطل الذبائح الدموية وصارت توبة القلب والاهتداء إلى الله وحدهما طريق نيل الخلاص.

يسوع الإيمان أو المسيح السري:

لاشكّ إن ما أعطى الفاعلية الكبرى لحياة يسوع التاريخية وأقواله وأعماله هو موته الذي جاء قمة في الشهادة والدعوة إلى ملكوت الله. فموت المسيح على الصليب لم يكن، على ما ظنه رؤساء اليهود، الكلمة الأخيرة النهائية، ذلك انه كان يحوي في ذاته بذرة الحياة والقيامة شأن حبة الحنطة التي لا تموت إلا لكي تأتي بثمر كثير (يو 12: 24).

إن هذه الحياة– القيامة المنبعثة من موت يسوع هي التي كانت في أصل جماعة التلاميذ، هذه الجماعة التي نمت من اثني عشر رسولاً إلى ثلاثة آلاف في يوم العنصرة (أعمال 2: 41)، لتصبح ملياراً ونصف المليار من الناس اليوم من كلّ قطر وعرق ولغة وأمة. من هذه القيامة انطلق التبشير والشهادة: "وقال لهم: هكذا كتب: أنه ينبغي للمسيح أن يتألم، وأن ينهض من الأموات في اليوم الثالث. وأن يكرز باسمه، بالتوبة لمغفرة الخطايا في جميع الأمم، ابتداء من أورشليم. وأنتم شهود لذلك" (لو 24: 46–48). "فخرجوا وكرزوا في كلّ مكان، والرب يؤازرهم ويؤيد الكلمة بالآيات التي تصحبها" (مر 16: 20).

وهكذا، فالمسيح بعد القيامة واليوم وغداً، لا ينبغي النظر إليه كما إلى مجرّد فرد تاريخي وحسب. فمن حيث أصبح موضوع إيمان، نراه في شخص كلّ هؤلاء المؤمنين به، من كلّ الشعوب والأمم. إنهم يشكّلون من الآن فصاعداً "المسيح السري" بالرغم من اختلافاتهم في اللون والجنس

والثقافة والحضارة. إنه هو الكرمة، أي الأصل، وهم الأغصان؛ هو الرأس، بحسب عبارة القديس بولس، وهم أعضاءه ومعه يشكّلون ما يدعوه اللاهوتيون "جسد المسيح السري"، أي الكنيسة.

أجل المسيح هو رأس الكنيسة جماعة المؤمنين، إذ هو في أصل وجودها وكيانها، وهو الذي يديرها فيغذّيها بكلمته وجسده ودمه. كما إنه هو الذي يعمل، شأن الرأس، على ترابط وتناسق كلّ الأعضاء. بهذا المعنى الرمزي الواسع يصبح يسوع كلّ واحد منا وهو نحن جميعاً. ومن هذا المنطلق بوسعنا أن نقول بأنه ينمو ويكبر دوماً فينا. فإذا كان المسيح التاريخي قد نما وبلغ ملء قامته الطبيعية في الزمن لمرة واحدة، "فمسيح الإيمان"، أو "المسيح السري" ينمو ويكبر دوماً فينا وبنا كلّما زدنا معرفة ومحبّة واندماجاً فيه وعطاء باسمه. فأمام المسيح كلّنا طلبة ومعلّمون. غير أن خطأ المسيحيين الكبير هو اعتقادهم بأن ما نالوه من تعليم في مرحلة معيّنة من عمرهم كافٍ في حد ذاته، فتقتصر علاقتهم بالكنيسة على القداس وبعض الصلوات الفردية.

إن الكنيسة لا تبنى بصورة صحيحة وناضجة إلا على أكتاف مسيحيين واعين ومسؤولين، وذلك يتطلّب منهم التعمّق والاتحاد أكثر فأكثر بروح المسيح ونهج حياته بالصلاة والتأمل بالإنجيل من جهة، وبتعميق الثقافة المسيحية الكتابية واللاهوتية من جهة أخرى. مثل هؤلاء المسيحيين يمكنهم تحمل مسؤوليتهم الإنجيلية والشهادة لإيمانهم عبر التزامهم وقناعاتهم. وأما إذا كان المسيحي ضحلاً وهزيلاً، فستكون الكنيسة أيضاً كذلك. وهذا التعمق

الروحي والثقافي لا يقتصر على مرحلة معيّنة من العمر بل يشمل جميع مراحل الحياة.

المسيح هو أيضاً ذاك الذي يمرض ويتألم ويحبّ ويحزن. لذا فان أيّ اهتمام بهذا العضو من جسد المسيح السري هو اهتمام بيسوع المسيح الكبير، يسوع الرأس والأصل، الكرمة والجسد. وأيّ بناء لهذا العضو أو ذاك هو بناء للجميع: "كلّما صنعتم شيئاً من ذلك لواحد من إخوتي هؤلاء الصغار فلي قد صنعتموه" (متى 25: 41). كما أن أيّة أذية تصيب عضواً أو خطيئة يرتكبها عضو فتلحقان الضرر بيسوع المسيح الشامل.

وتتسع شخصية المسيح السري على كلّ هذه البشرية بآمالها وآلامها. أليس أنه البكر بين كثيرين (1 قور 15: 23). فهو إذن، كلّ هؤلاء الناس المساكين، الفقراء، المظلومين، المقهورين المستبعدين، كلّ أولئك الذين يموتون جوعاً وبرداً، كلّ تلك الشعوب النامية التي تسعى إلى التحرر والتقدّم..

نحن والمسيح:

إذا كان المسيح كلّ واحد منا وهو نحن جميعاً، فلابد من تجسيد هذا البُعد في واقع الحياة. ولذا لا يكفي الانتماء الاسمي فقط إلى المسيح لأسباب وراثية اجتماعية وحسب، وإنما على الأعضاء، كلّ الأعضاء، أن يشعروا شعوراً حقيقياً، عميقاً، وفعلياً بهذا الانتماء الحي ويلتزمونه، كونهم أعضاء مترابطين ومتماسكين مع بعضهم البعض. وهذا يعني أننا لسنا مسؤولين عن أنفسنا حسب، وإنما عن الآخرين أيضاً، عن جميع أعضاء المسيح. وبقدر ما نشعر بمسؤوليتنا تجاه أنفسنا وتجاه الآخرين، بقدر ذلك يمكننا القول بأن "المسيح"

لدينا، وله أن ينمو في الآخرين بواسطتنا كبذرة تملك طاقة الحياة. وهكذا نشعر بمسؤوليتنا الفعلية عن تأصل حياتنا الإيمانية في المسيح وعن إنمائها وتطويرها نحو الأفضل. كما نشعر بمسؤوليتنا عن تأصل الحياة الإيمانية في المسيح لدى الآخرين، لا بل نشعر بأننا مسؤولون عن حياة الكنيسة جمعاء وصياغة وجهها المستقبلي.

وهذا الاهتمام بحياة الكنيسة ونموها ومصيرها هو علامة انتمائنا الحقيقي والفعلي إليها. وأما العكس فمعناه أننا لسنا من الكنيسة وفيها إلا ظاهرياً. فلا بد من أن نتأصل في المسيح أولاً كالشجرة التي تتأصل في الأرض وتمد فيها جذورها عميقة وترتبط بها بحيث يصيران واحداً.

إن هذا التأصل ضروري إذ يشكّل الخطوة الأولى والأساسية من أجل إنماء وتطوير حياتنا الإيمانية. بل من أجل ازديادها إلى أن تبلغ قامتها، وفي الوقت الذي يضطلع الأعضاء بمسؤوليتهم هذه، عليهم أن يقوموا بمهامهم، كلّ حسب الموهبة التي منحها له الروح القدس. فكما أن الجسد واحد مع تعددية الأعضاء، هكذا أعضاء المسيح متعددون وبالتالي متعددة هي المواهب والخدمات في المسيح. وعلى كلّ واحد من الأعضاء أن يكتشف موهبته ويعرف خدمته ليقوم بها ويستثمرها من أجل بناء وإنماء وازدهار "المسيح السري" بأكمله.

* *

يسوع المسيح هذا الإنسان الشامل

في شخصية يسوع المسيح الفذة أبعاد وجوانب عديدة ومختلفة لا يمكن تناولها دفعة واحدة. لذا يلزمنا أن نتطرق في كلّ مرة إلى جانب من هذه الجوانب، أو إلى بُعد من هذه الأبعاد. وفي هذا المقال سنقتصر على جانب الشمولية.

يسوع المسيح الإنسان الشامل:

لسبر أبعاد هذه الشمولية لابدّ من العودة إلى الإنجيل حيث تتجلى في مجمل بشرى المسيح مرسل الأب إلى العالم. هذه البشرى التي تتضمن أحداث حياة يسوع وأقواله وأمثاله وأعماله ومواقفه وتصرفاته,

إننا لا نكلّ ولا نملّ من التأكيد على أن المسيح لم يحمل البشرى حسب، وإنما هو البشرى بالذات. وإذا احتوى العهد الجديد كلّه، ولاسيما الإنجيل، شيئاً جديداً فهي هذه البشرى. إنها بمثابة الخيط الذي يربط العهد الجديد كلّه من أوله إلى آخره. من المسيح إلى الرسل، فالجماعة المسيحية الأولى كلّهم يعلنون وينادون بهذه البشرى، وما الإيمان سوى قبول هذه البشرى: " توبوا وآمنوا بالإنجيل (البشرى الحسنة) (مر 15:1). أما عكس الإيمان فهو رفض البشرى. وهذا الإيمان لا يزرع جاهزاً في قلب الإنسان، بعكس ما يعتقد البعض، وإنما يقبل كبذرة. وللبذرة إمكانية النمو والتطوّر، شأن أيّ كائن حر آخر، بينما البشرى تنقل فتقبل أو ترفض.

ولقد توجه المسيح بهذه البشرى إلى كلّ الناس، بدءاً باليهود، ثم السامريين، والكنعانيين، فالعالم كلّه. ولأن المسيح ظهر في زمان ومكان معيّنين، كان من الطبيعي أن يتوجه ببشراه أولاً إلى هذا الشعب بالذات، أي الشعب اليهودي*.

ولئن بدت هذه البشرى موجهة إليه أولاً، فهي مع ذلك تحمل طابع الشمولية، كما سنرى.

ومن بعد اليهود توجه المسيح ببشراه، بدءاً من السامريين، والكنعانيين، إلى العالم أجمع. والفضل في انتشار بشرى المسيح في العالم كلّه، يعود، ولاشكّ، إلى الرسل والجماعة المسيحية الأولى الذين شعروا بعد القيامة، ومن ثم في غياب المسيح الجسدي، بأنهم هم المسؤولون عن نقل هذه البشرى إلى العالم بعد أن أعدّهم المسيح طيلة ثلاثة أعوام. وهكذا أخذوا زمام المبادرة في التبشير بالمسيح. ولكن قبل أن ينقلوا البشرى كان عليهم أن يعيشوها فيصيروا هم أنفسهم بشرى، على غرار سيدهم. وهذا ما ينطبق علينا تماماً نحن تلاميذ المسيح ورسله اليوم أيضاً، فلا بد لنا أن نشعر بأننا المسؤولون عن نقل البشرى، وبالتالي أن نأخذ زمام المبادرة في نقلها، شرط أن نتهيأ لهذه المهمّة.

وللدلالة على هذا التوجه الشمولي للمسيح، نقف خاصة عند بعض أمثال يسوع وأقواله وأعماله. ومن بين هذه الأمثال لنأخذ السامري الصالح.

هذا السامري عدو تقليدي لليهودي لأسباب تاريخية معروفة: سياسية ودينية، إذ انشق أهالي الشمال عن أهالي الجنوب بعد موت سليمان، مكوّنين

---

*انظر مقالنا في ف.م. ك 1 1988، ص 420

لهم مملكة عاصمتها السامرة، ولأن السامريين، بعد الاستيلاء الآشوري على عاصمتهم عام 721 ق.م. أصبحوا مزيجاً من اليهود والوثنيين بعد أن جلب الآشوريون أناساً من خمس مدن واستوطنوهم فيها (4 ملوك 17: 5). فضلاً عن أن السامريين لم يكونوا يعترفون إلا بأسفار التوراة أي بالأسفار الخمسة الأولى المنسوبة إلى موسى، وكانوا قد بنوا لهم هيكلاً في جبل كورازيم منافساً لهيكل أورشليم (يو 4: 19–20). فمع كلّ هذا العداء التاريخي، المرير والطويل، يقدّم لنا المسيح أن الشخص الذي يتحنّن على اليهودي الجريح في الطريق هو سامري، وهكذا تبدو شمولية المسيح جلية من خلال هذا المثل– العبرة. حيث أن كلّ إنسان محتاج إلينا هو قريبنا، بغض النظر عن انتمائه الديني أو القومي أو الاجتماعي أو الطائفي، وبغض النظر عن رأيه وموقفه منا.

وثمة أعمال قام بها المسيح تجاه كلّ الناس تدل على شموليته، فهو يشفي اليهودي، رجلاً كان أم امرأة أم شيخاً أم شاباً أم طفلاً، ويشفي الوثني على حد سواء، أكان ابن قائد مئة روماني، أم ابنة امرأة كنعانية. مع أن الشريعة الموسوية تحذر التعامل مع الوثنيين لأنهم أنجاس وعبدة أصنام، فقد حطم المسيح هذه العقلية التي تصنع حدوداً وسدوداً وهمية بين الناس، وخالط الفرّيسيّين والعشّارين والخطأة وحتّى الزناة. ورأى الإنسان في كلّ واحد وواحدة. وليس الانتماء الديني أو العرقي أو القومي أو الطبقي. ففي نظر المسيح، لا فرق بين يهودي ووثني وبين سامري ويهودي، إذ كلّهم أبناء الله، إذن إخوة له ولبعضهم البعض. وهذا ما أدركه جيداً القديس بولس إذ يقول: "فلم يبق من بعد يهودي أو يوناني، عبد أو حر، ذكر وأنثى، لأنكم جميعاً

واحد في المسيح يسوع" (غلا 3: 28). ومحبّة يسوع لا تقتصر على بعض الناس فقط، كأهله وأصدقائه والمقربين إليه، وإنما تشمل كلّ الناس. وهذه أقواله كلّها تدل على شموليته. وهاكم بعضها:

قوله حول محبّة كلّ الناس حتّى الأعداء: "أحبّوا بعضكم بعضاً.. أحبّوا أعدائكم.. مبغضيكم..لاعنيكم.. اغفروا..". ولقد جسد هذه المحبّة الشاملة في ذاته أولاً، إذ أحبّ الناس، كلّ الناس، وغفر لخصومه ومناوئيه وأعدائه. وكذلك قوله عن القرابة : "إن أمي وإخوتي هم الذين يسمعون كلام الله ويعملون به" (لوقا 8: 21), فأهل يسوع وأقرباؤه وانسباؤه هم إذن كلّ أولئك الذين يسمعون كلام الله ويعملون به. وهكذا لا تقتصر هذه القرابة على بعض الأهل والأقارب، وإنما تشمل الكلّ، لأنها قرابة روحية تتعدى الوشائج الدموية والعرقية. لذا كانت الأهم والأقوى والأعمق.

وهنا لابد لنا أن نتساءل: نرى ما هو سر هذه الشمولية لدى المسيح؟ إن سر هذه الشمولية يكمن، ولاشكّ، في علاقته مع الله، كونه الابن، وبالتالي في معرفته إيّاه معرفة حقيقية، عميقة، وقوية. يقول المسيح لليهود عن الله أبيه: "أنتم لا تعرفونه وأما أنا فأعرفه لأني من لدنه أتيت وهو الذي أرسلني" (7: 28–29). لذا فالله، حسب يسوع، ليس إله الجميع حسب، إله اليهود والوثنيين، بل أنه أب للجميع. ولأنه أب فهو يحمل المحبّة لجميع أبنائه من دون استثناء، للأخيار والأشرار، وللكفار والمؤمنين. إنه يشملهم بمحبّته وعطفه وحنانه وإن زاغوا عن الطريق برهة، ولا يريد لهم سوى الخير والسعادة والخلاص. لذا فهو لا ينفكّ يناديهم بكلمته إلى التوبة والإيمان: "حان الوقت واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالبشارة" (مر 1: 15).

ولما كان يسوع ابن هذا الأب الشامل بأسمى وأعمق ما في البنوّة من أصالة وحقّ، فقد كان لابد أن تتّسم حياته كلّها بطابع الشمولية، فينظر إلى الناس بهذه النظرة ويحبّهم على غرار أبيه. لذا لا نجد في حياة المسيح وفي فكره ضيقاً في الأفق، كما لا نجد في حياته كلّها مكاناً لمشاعر الانتقام والضغينة والبغضاء والكراهية وحبّ السيادة والتملك والاستغلال، ذلك أنه مشبع من هذه الشمولية، رجل الجميع، ومنفتح على الجميع من دون استثناء، وقد جاء من أجل رفع الإنسان، كلّ إنسان، وكلّ الإنسان، والسموّ به.

إن هذه الشمولية هي التي تميّز المسيح عن أناس آخرين، أولئك الذين يشهدون، عادة، على ضيق في أفق التفكير والمحبّة. فتفكيرهم لا يذهب أبعد من أبناء جماعتهم أو قومهم أو عشيرتهم أو ديانتهم أو بلدهم.

تلميذ المسيح إنسان شامل:

ولما كان المسيحي تلميذ المسيح، عليه أن يكون مثل سيّده، إنساناً شاملاً، إذن منفتحاً، واسعاً ورحباً. فهو لا يميّز أو يفرّق في نظرته ومحبّته وتصرفه بين هذا الإنسان وذاك، مهما كان دينه أو قومه أو طائفته أو لونه أو جنسه. ولا يرفض أيّ إنسان أو أيّة قيمة لدى الآخرين، وإن اختلفوا عنه، بل يعترف بهم وبمختلف الشعوب والأمم والأقوام ويكنّ لهم الاحترام والتقدير. كما ينبغي أن يشمل هذا الاحترام والتقدير كلّ القيم التي تحملها الأديان الأخرى، من محبّة وعدل وحرية وغير ذلك من القيم كما فعل المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني في تصريحه حول علاقات الكنيسة مع الديانات غير المسيحية، إذ ليس مقبولاً رفض الآخر وعدم الاعتراف به ككيان ووجود

وصفات وإمكانيات ومواهب وقدرات وقيم، في الوقت الذي نريد أن يعترف بنا الآخرون ويحترموا قيمنا.

إن مثل هذا الرفض شيء خطير، إذ أنه عمى بمعناها القوي والعميق، الأمر الذي يجب ألا يرتضيه تلميذ المسيح لنفسه. فلابدّ له، إذن، أن يزيل هذا العمى من ذاته وأن تكون عيونه مفتوحة على العالم وعلى كلّ ما يحيط به ليكتشف ما هو جيد عند غيره ويقبله ويعترف به في قرارة نفسه وعلناً.

وإذا كان هذا الاكتشاف صعباً في ذاته، فالأكثر صعوبة، هو ولاشكّ، الإقرار والاعتراف بالآخر. ولكنّ القيام بهذه الخطوة ضروريّ من أجل الالتقاء به وإقامة حوار معه. ذلك لأن الحوار ذاته يفترض الاعتراف المتبادل بوجودين مختلفين.

* * *

هل له من مثيل؟

قبل ألفي عام، ظهر إنسان مثلنا شبيهاً بنا، ما خلا الخطيئة (عبر 4: 15) ولكنّه مختلف عنّا أيضاً.

ومن شأن إجراء مقارنة بسيطة، أن يبرز وجه الاختلاف الأساسي بين يسوع من جهة وبيننا من جهة أخرى، الأمر الذي يثير تساؤلاً أساسياً حول هذا الإنسان ألا وهو : تُرى، لماذا كان وما يزال هذا الإنسان مختلفاً عنّا؟

هذا ما أود أن أتناوله، في هذا المقال، ساعياً إلى الإجابة عن هذا السؤال الأساسي.

بيننا:

لا غروَ أنّ كلّ ما خلقه الله حسن وبالتالي، فالإنسان الذي يمثّل قمة هذه الخليقة هو أيضاً حسن. لذا فإن كلّ فيه خير وليس شراً، سواء كان قوى أو طاقات أو مواهب، ذلك أنّ الله خير ولا يمكن إلا أن يخلق خيراً، إذ لا يصدر عمل أو فعل إلا حسب طبيعة هذا الشيء أو هذا الشخص.

إلا أن هذا الخير الكامن فيه قد يتحوّل، في الواقع، إلى شر بسبب محدودية الإنسان ونقصه عن الكمال، وذلك بملء حرّيته ومحض إرادته. وهكذا قد يسيء المرء إلى ذاته وإلى الطبيعة والعالم، فيحوّل الحبّ إلى بغضاء وعداء وكراهية وثأر وانتقام، وكذلك يحوّل السلام إلى حقد وضغينة وحرب واقتتال من دون هوادة، وأخيراً يحوّل الحنان والرحمة والطيبة إلى

تصلّب وقسوة إلى حدٍ قد يمسي فيه قلب الإنسان أكثر صلابة من الصخر، بل أكثر بطشاً وفتكاً من الحيوان.

وفي حوزتنا، في هذا الشأن، العديد من الأمثلة، في التاريخ البشري القديم والحديث. فهوذا قايين يقتل، عن حسد، أخاه هابيل.

ولئن كان ثمة أشخاص قد تحوّلوا ويتحولون إلى رموز، وآخرون يمثّلون شعوبهم بما لديها من تطلّعات وآمال، فإن حياتهم لم تخلُ ولا تخلوا من نقائص وعيوب وهفوات وزلاّت وأخطاء بل خطايا.

ولذا فقد كان التاريخ البشري، أفراداً وجماعات وشعوباً، مزيجاً من الحبّ والسلام والرحمة والطيب والحنان، ومن الحسد والغيرة والحقد والكراهية والأنانية والبغضاء والعداء.

وفي هذا الميدان الإنساني، من الصعب على المرء أن يتقدّم، وإن حدث ذلك فإن تقدّمه بطيء للغاية، في حين من السهل عليه أن يتقدّم في ميادين أخرى، فما يزال الإنسان هو هو، ما لم يقبل المسيح ويتأثر بكلمته. فهو تارة، محبّ وطيّب وحنون، وتارة أخرى غيور وأناني وحسود.

وبين يسوع:

إلا أن هناك إنساناً واحداً فقط لا مثيل له في التاريخ البشري، أو يعلوه أحد– إنسان فريد ووحيد حقاً: إنه يسوع المسيح.

ويبان لنا ذلك من خلال قراءة سريعة للعهد الجديد، ولاسيّما الإنجيل المقدس حيث لا نرى، في شخصه وحياته، أثراً للحسد والغيرة والأنانية والكراهية والبغضاء والانتقام والثأر، فقد كان كلّه حبّاً وسلاماً وحقاً وعــدلاً وطيباً ورحمةً وحناناً.

فهو لم يكره أحداً، ولم يكنّ البغضاء لأيّ إنسان، بل أحبّ ولم يكّف عن هذه المحبّة لحظة واحدة، حتّى محبّة الأعداء والخصوم حتّى النهاية– الموت صلباً. وهذا ما يصحّ أيضاً بالنسبة إلى كلّ القيم الأخرى التي حملها وطبّقها في حياته.

زِد على ذلك، إن المسيح قد أظهر حرية تامة ومطلقة، بالنسبة إلى السلطة والمال والجنس. فهو لم يطمع في تبوّء مركز مرموق ولا في اتخاذ مكانة اجتماعية بارزة، في الوقت الذي مارس السلطة الممنوحة له ألا وهي السلطة على غفران الخطايا والتعليم وصنع العجائب.

كما أنه لم يبحث عن المال، بجمعه وتكديسه، وهو الغني الذي صار فقيراً وعاش فقيراً إلى النهاية، متضامناً مع كلّ الفقراء والمساكين والهامشيين في كلّ زمان ومكان.

وأخيراً لم يتعلق بحبّ أيّ امرأة في هذا العالم، هو الذي منحها قيمتها الحقيقية والكاملة إذ ردّ إليها الاعتبار وجعلها ابنةً لله في الملكوت. ولا يعود السبب في ذلك، كما قد يعتقد البعض، إلى تكريس يسوع ذاته لقضية ملكوت الله فحسب، بل لأن قلبه كان مليئاً ومشبعاً تماماً بحبّ الله.

وهكذا عاش المسيح عفيفاً، طاهراً، نقياً ونزيهاً، من دون أن يقع في خطر هذه التجارب الثلاث بل انتصر عليها.

كما إننا لا نجد، في كلّ تعليمه، أيّ أثر لكلّ هذه الشرور والخطايا التي ذكرناها سابقاً، بل كان يدعو وما يزال، من خلال تعليمه وبشراه، إلى تخطّي الواقع الإنساني إلى حد التشبّه بالله في الكمال والحبّ والسلام والصلاح والرحمة، هذا الإله الذي نراه موجوداً في كلّ الإنجيل ووراء كلّ الإنجيل،

وأن لا يُلفظَ باسمه أحياناً، بل وراء كلّ فعل، كلّ كلمة، كلّ عملّ وكلّ قول صدر عن يسوع المسيح.

وفضلاً عن ذلك، فهو لم يستخدم، في كلّ تعليمه، لا العنف ولا القوة من أجل نشر مبادئه العليا وقيمه السامية إذ احترم إلى أبعد الحدود، إرادة وحرية الإنسان، داعياً إيّاه إلى التوبة والإيمان والولادة الجديدة، من دون أن يفرض عليه بشراه أو تعليمه بالقوة أو العنف. وهذا إن دلّ على شيء، فإنما يدلّ على مدى قوة المسيح، ذلك أن استخدام القوة المادية إن هو إلا تعبير عن ضعف الإنسان وعجزه.

فهل هناك، إذن، شخص يضاهيه في العالم أو يفوقه حبّاً وعدلاً وسلاماً وحناناً ورحمة وغفراناً وتسامحاً؟. أفلا يستحق هذا الإنسان، والحالة هذه، أن يتبعه كلّ الناس، وأن يحبّوه أكثر من سائر الناس وأكثر من كلّ الخيرات بل أكثر من أنفسنا بالذات؟ ثم أوَلا يستحق هذا الإنسان أن يكون محبوباً من الجميع؟.

لماذا هذا الإنسان يسوع المسيح مختلف عنا؟

قد يندهش ويستغرب البعض ظهور مثل هذا الإنسان إلى حيّز الوجود، متسائلين: تُرى، ماذا ومن الذي جعله مختلفاً عنا على هذا النحو إلى حد التشبّه بالله؟.

قد يكون الجواب على هذا السؤال سهلاً وبسيطاً وهو إن الله أراد أن يكون المسيح كاملاً: في صفاته وميّزاته وطاقاته ومواهبه، كاملاً في نيّاته ودوافعه وتصرفاته وأعماله ليظهر أول وآخر إنسان في التاريخ البشري

بمثل هذه المواصفات، وهذا ما عبر عنه القديس لوقا في معرض حديثه عن البشارة إذ أكّد على أن يسوع المسيح كلّه من الله.

ومع أن يسوع المسيح كان من صنع الله إلا أنه سعى جاهداً إلى بناء ذاته من خلال التعليم ولاسيّما من خلال سماعه كلمة الله ونشرها، مغذّياً ومعزّزاً ذاته بالمبادئ والقيم المتضّمنة فيها وكذلك سعى إلى بناء ذاته من خلال العمل الذي قام وأنجزه.

ولابدّ لنا أن نؤكّد هنا أن يسوع المسيح لم يكن إنساناً فحسب، بل يحمل في ذاته بعداً إلهياً إذ هو الله– الإنسان معاً ممّا جعله أن يكون متميّزاً، شاملاً وكاملاً.

يسوع المسيح نموذج الإنسان:

لاغروَ أنّ مثل هذا الإنسان لا يمكن أن يكون نموذجاً للبشرية جمعاء، تقتدي به وتحتذي به في كلّ مبادئه وقيمه وصفاته كي تتخطى واقعها البشري ولاسيّما السيئ منه، متسامية به إلى الواقع الإلهي حيث البشرية مدعوّة إليه. أولَم يقل أحد الآباء إن الله صار إنساناً كي يصير الإنسان إلهاً؟.

وهذه الدعوة إلى التأليه كانت قائمة مذ أن خلق الله الإنسان إذ أراده شبيهاً به، لا بديلاً عنه، كما طرح نفسه الإنسان الأول فسقط في الخطيئة. وقد راودته هذه التجربة عبر التاريخ وإلى أيامنا هذه، فخطيئة الإنسان الأول لم تكن تفّاحة أكلها وجنساً مارسه، لا ولا كبرياء حمله، بل رغبته في أن يصير بديلاً عن الله في الحكم على الخير والشر، الأمر الذي يعود إلى الله وحده.

وإذ باء هذا المشروع بالفشل بسبب خطيئة الإنسان، جاء يسوع المسيح مجدداً هذه الدعوة، بإضفاء الكمال على كلّ ما كان ناقصاً، متخطّياً ما هو

سيء ورديء ليكون المسيحي هذا الإنسان الكامل على غرار يسوع المسيح، الإنسان الكامل.

وهكذا حمل الله، منذ البداية، هذا التصوّر السامي عن الإنسان كما حمله يسوع المسيح في آخر الأزمنة، ساعياً إلى تحقيقه

إلا أن هذا التصوّر، المتعلّق بتأليه الإنسان، لن يتحقق فعلاً وحقاً ما لم ينضم الإنسان إليه بإرادته وحريته. فبقدر ما يتعلق بالله وبالمسيح، بقدر ذلك يتعلق بالإنسان.

وكم من المسيحيين، قديماً وحديثاً راحوا يقتدون بالله في حنانه ورحمته وحبّه غير المحدود وغير المشروط، الكامل والشامل، فأمسوا وما يزالون أبطالاً في المحبّة والحنان والرحمة، يصنعون عجائب المحبّة في العالم، ممّا أثار ويثير دهشة الناس في العالم ذلك أن سرّ الله أمسى ويُمسي سرّهم، وما سرّ الله سوى سرّ محبّته وعطفه وحنانه ورجمته على خلائقه، ولاسيّما على الإنسان الذي إن هو إلا أسمى خليقة.

* *

من مثل الله؟

كنت قد كتبت في مجلة "نجم المشرق" الغراء مقالاً بعنوان "وهل له من مثيل؟"، تطرقتُ فيه إلى فرادة يسوع المسيح.

أما هذا المقال، فهو يأتي مكملاً للمقال السابق، ذلك إن فرادة يسوع تتأتّى من تشبّهه بالله، ولكن لا يمكننا التحدّث عن تشبّه يسوع بالله، ما لم نعرف أولاً من هو الله وما هي صفاته. هذا ما أود أن أتناوله في هذا المقال.

من هو الله وما هي صفاته؟

في حوزتنا مصدران يتناولان موضوع الله. المصدر الأول هي أعماله الظاهرة والبيّنة للعيان كالخلق مثلاً. فمن خلال هذه الأعمال، في وسعنا الوصول إلى معرفة الله، مثلما نعرف الإنسان من خلال أقواله وأعماله، إذ من الصعب بل من المستحيل معرفة الإنسان بذاته ولكنّ من خلال ما يصدر عنه. فنكوّن عنه رأياً أو نحكم عليه فنقول بأنه كذا وكذا.

أما المصدر الثاني لمعرفتنا الله فهو، ولاشك، الكتاب المقدس ولاسيما الإنجيل المقدس.

إن هذا المصدر الأخير لا يقدّم لنا تنظيراً حول الله أو يعطينا وصفاً أو تحديداً دقيقاً عنه، إذ يظلّ فوق أيّ تحديد أو تعريف، وإنما يحدّثنا عن الله في علاقته مع عمله كعمل الخلق والتحرير والخلاص والفداء. فيظهر الله، من خلال هذا العمل، خالقاً، أباً، محرراً ومخلّصاً وفادياً للإنسان أسمى خلائقه.

وإذا كان "العهد القديم" لا يقدّم لنا سوى ملامح وجه اله ناقص، وذلك نظراً للمرحلة التي كان يمرّ بها الشعب وللأزمات التي كان يتعرّض لها كالنزاعات والحروب، وكذلك لإسقاط الإنسان بعض مشاعره على الله كالانتقام مثلاً، فإننا نرى وجه الله مع يسوع المسيح وبه وفيه. فإذا هو أب كامل في حبّه وحنانه وطيبه ورحمته وعطفه وسلامه وتسامحه وعدله ومساواته وغفرانه، ممتلكاً كلّ هذه الصفات والمزايا على أكمل وجه.

يسوع المسيح شبيه بالله:

ممّا لا شك فيه أن ما من إنسان يمتلك كلّ هذه المزايا والصفات، وذلك أن كلّ إنسان يشعر بضعفه ونقصه ومحدوديته.

إلا أن هناك إنساناً واحداً كان مثل الله على هذه الأرض، إذ جسد كلّ قيمه وصفاته وعايشها بعمق، وبأكمل وجه، وعكسها في حياته وفي تعليمه، ممّا ميّز وما يزال يميّز صوت هذا المعلّم وهذا الراعي عن باقي أصوات المعلّمين والرعاة الآخرين.

ففي كلّ حياته وكلّ تعليمه، لا نرى ما هو سلبيّ، وإنما ما هو إيجابي فقط حتّى بالنسبة إلى الخصوم والأعداء.

ففي حين يدعو آخرون إلى العداء والانتقام وإلى الخصام والثأر، تاركين الإنسان على ما هو عليه من حسد وغيرة وبغضاء وكراهية، معزّزين ومغذّين إيّاه بالمشاعر والقيم السلبيّة ولاسيّما تجاه الآخرين، ، لا نجد في يسوع وفي كلّ تعليمه، لا حسداً ولا غَيرةً، لا أنانية ولا كراهية، لا بغضاء ولا عــداء، لا انتقــام ولا خصاماً، على العكس، كلّه وفي كلّ تعليمه، حبّ

وصدق وأمانة وعطاء ورحمة وحنان وعدل وحقّ.

وهكذا عاش يسوع المسيح على وفق هذا التماسك، وهذا التوحّد والتناغم والتناسق بين حياته وتعليمه، بعيداً عن التناقض، الأمر الذي جعله سعيداً غاية السعادة في حياته. فهو لم يَفُهْ بشيء ما لم يعشه لا بل يُعايشْ، بل عايشَه قبل أن يفوه به أو يعلّمه للآخرين.

إلا أن يسوع المسيح لم يكن شبيهاً بالله في حياته وتعليمه حسب، بل أيضاً في طريقة تصرّفه وكلامه، هذه الطريقة التي بدت غريبة ومختلفة عن طريقة الناس وقتئذ، ولاسيّما للكتبة والفرّيسيين، ولتوضيح ذلك، أسوق هنا مثالَين على ذلك:

المثال الأول هو عن طريقة تصرفه مع الخطأة، أولئك الذين خالطَهم، إذ جالسهم وأكل معهم داعياً إيّاهم إلى التوبة عِوَضَ أن يَنبذَهم أو يُبعدهم كما كان يطالبه بذلك الكَتَبة والفرّيسيّون، إيماناً منه بأن هؤلاء مرضى يحتاجون إلى طبيب وليس الأصحاء. وبدلاً من أن يرضخ لمشيئتهم، واصل مخالطتهم، مبرّراً موقفه هذا بموقف الله من هؤلاء الخطأة.

أما المثل الثاني، فهو يتعلق بطريقة كلامه عن صلاة الفرّيسي والعشّار. ففيما كان المستمعون ينتظرون ويتوقّعون أن تُقبل صلاة الفرّيسي وليس العكس، فإذا بيسوع قد أثار تعجّب واستغراب المستمعين ومفادها ان الله قد قبل صلاة العشّار وليس صلاة الفرّيسي.

وكذلك طريقة كلامه في مثل الابن الشاطر وعمّال الكرمة ...

يسوع طريقنا إلى التشبّه بالله:

إن طريقة التشبّه بالله يمر، ولاشك، عبر التشبّه بيسوع. فمتى ما حاولْنـــا

التشبّه بيسوع باكتساب كلّ صفاته ومزاياه، استطعنا التشبّه بالله.

وتقوم رسالة يسوع في جوهرها على هذه الدعوة بالتشبّه بالله، وذلك من أجل تخطّي الواقع البشري الناقص أو السيئ إلى الواقع الإلهي الكامل. وهكذا يدعو إتباعه مراراً وتكراراً إلى أن يصيروا مثل الله في كماله وحبّه وطيبه وحنانه ورحمته.

ويَسَعُنا التأكيد بأن وراء كلّ الإنجيل، بل وراء وفي كلّ كلمة فاه بها يسوع هناك نموذج الأب الذي يقدّمه يسوع كي يتشبّه الأبناء بهذا الأب.

ولئن كانت هذه الصيرورة صعبة، فهي ليست مستحيلة بل ممكنة، إذا ما توفرت الإرادة الطيّبة، وقام المسيحي بسعيٍ جاد من أجل اكتساب كلّ مزايا الله وصفاته، عبر اكتساب مزايا يسوع وصفاته.

وإذ ذاك، يمكنه أن يعيش مع ذاته ومع الآخرين ومع الطبيعة بالحبّ والسلام والانسجام والتناغم، بعيداً عن روح الانتقام والبغضاء والعداء والاعتداء.

* *

طريق يسوع المسيح

ما المقصود بالطريق؟

ليس المقصود بلفظة الطريق هنا هذا السبيل الذي نسلكه وصولاً إلى المكان الذي نقصده أو نرغب في الوصول إليه وإنما الخط الذي انتهجه يسوع المسيح في حياته وفي تعليمه.

طريق يسوع المسيح:

في وسعنا القول بأن طريق يسوع هو طريق الثوابت مع ما هو متحرك ومتغير في الحياة والتعليم. وهذه الثوابت، في خط يسوع المسيح، إن هي إلا الثوابت الإنسانية المعروفة مع إضفاءِ بُعدٍ الهي عليها وإذن بُعد مكمّل. وترتكز هذه الثوابت على جملة من المبادئ والقيم والمثل العليا السامية والنبيلة. ذاك كان مساره وقراره وخياره في الحياة.

إن هذه الثوابت هي التي تشكّل منهج حياة يسوع المسيح وتعليمه كالأخوّة والمحبّة والصدق والإخلاص والأمانة والعدل والرحمة والحنان وغيرها من الثوابت.

وتتّسم هذه الثوابت بسمات عديدة:

السمة الأولى هي سمة الوحدة والتماسك. ففي حياة يسوع المسيح، كما في تعليمه ليس هناك لا تعارض ولا تناقض أو ازدواجية بين التعليم والحياة وبين القول والعمل، بل هناك تطابق تام وكامل. فلقد عاش هذه الثوابت وعلّمها دون غيرها. فهو لم يتكلّم عن المحبّة في حين أنه عاش أو دعا إلى

البغضاء والعداء، الأمر الذي جعله ينفرد ويتميّز عن سائر المعلّمين الآخرين. صحيح أن هناك اختلافات في الإنجيل، هذه الاختلافات التي تعود إلى الكاتب وإلى الجماعات التي يتوجه إليها إنجيله. إلا أن هذه الاختلافات بالذات هي التي تشكّل عبقرية الإنجيل المقدس.

السمة الثانية لهذا الطريق أو هذا الخطر هي الوضوح والبساطة. ففي حياة يسوع كما في تعليمه، لا نجد أيّ غموض أو تعقيد بل وضوحاً وبساطة وفي الوقت نفسه عمقاً. ولذا علينا ألا نكتفي بقراءة سطحية لطريق المسيح، بل أن تكون قراءتنا عميقة ومتجدّدة، لئلا نقع في خطر الروتين من كثرة ما نقرأ أو نسمع عن الإنجيل المقدس.

أما السمة الثالثة لهذا الطريق فهي سمة السهولة والصعوبة في آن واحد. فطريق المسيح هو الطريق الذي يجمع بين السهل والصعب معاً.

إن هذا الطريق سهل إذ لا يكرّس المسيح حالة الشريعة السابقة ولا يثقل مستمعيه بالفرائض والقوانين المفروضة عليهم من الخارج. على العكس، يحرّرهم المسيح من نير الشريعة محتفظاً بشريعة المحبّة وحدها، هذه الشريعة التي أو صلها إلى تمامها وكمالها. لأن المسيح لم يكن حامل الشريعة وإنما حامل البشرى.

وفي الوقت ذاته، فإن طريق المسيح طريق صعب لأنه متطلّب بسبب متطلّبات هذه الثوابت التي كلفته ثمناً كبيراً وغالياً: حياته التي قدّمها قرباناً لأمانته وثباته على هذه الثوابت، إذ لم تُثنِه كلّ المحاولات وبضمنها محاولات قتله، كما إنه لم تغوِه كلّ الإغراءات كالسلطة والمال بل وقف كالطود الأشم، ثابتاً راسخاً، إلى النهاية الحتمية المعروفة ألا وهي الصليب، بعد أن لاقى

الرفض وكابد الألم وناضل ببسالة ودخل في صراع طويل ومرير مع السلطة آنذاك بشجاعة وجرأة، غير آبهٍ بكلّ النتائج المترتبة على مواقفه وتصرفاته حول الإنسان وحول مسائل كثيرة.

طريق يسوع المسيح طريقنا:

لاشك أن طريق يسوع المسيح هو طريقنا، مهما كلفنا هذا الطريق من ثمن. وقد يكون هذا الثمن، أحياناً كثيرة، غالياً. فما من طريق آخر لنا سوى هذا الطريق كأن يكون طريق العالم السهل، إذا كنا حقاً أتباعه وتلاميذه ورسله.

وكما كان هذا الطريق يشكّل منهج حياة يسوع المسيح وتعليمه، فهو يشكّل أيضاً منهج حياة المسيحيين اليوم.

لاشكّ أن هؤلاء المسيحيون، في سعيهم إلى تطبيق هذا المنهج، سيلاقون صعوبات جمة وسيتعرّضون إلى تجارب عديدة. إلا أن هذه الصعوبات وهذه التجارب، وهي محكّ واختيار حقيقي لهم، ينبغي ألا تحول دون تطبيق هذا المنهج، لكيما يبرهنوا، من خلال خلالها عن قوة إيمانهم بهذا المنهج وكذلك على ثباتهم في إيمانهم به وقدرتهم في اجتيازها والخروج منها بقوة وثبات ورسوخ أكثر وأكبر من ذي قبل.

* * *

يسوع المسيح ومشروع الله

هل كان لله مشروع؟ وإذا كان لديه، فماذا كان؟ هل كان الخَلق أم الخلاص أم التجسّد أم الفداء أم ماذا؟

إن هذه الأسئلة المطروحة أساسية وهي تتطلّب منّا الإجابة عليها، وهذه الإجابة ستكون موضوع بحثنا في هذا المقال.

مشروع الله:

إننا نؤمن بأن الإنسان، ولا شيء آخر، هو الذي شكّل وما يزال يشكّل مشروع الله، إذ أراده ذروة وهدفاً لكلّ عمل أو لكلّ نشاط قام به الله خارج ذاته، سواء كان هذا العمل أو هذا النشاط خَلقاً أم خلاصاً أو تجسّداً أو أيَّ شيء آخر.

وأبدع الإنسان ذروة ما خلق، إذ جاء آخر كائن ظهر على الأرض. ولذا جاء خَلقُه متميّزاً، وبالتالي متسامياً عن سائر الكائنات الأخرى، إذ حبّاه بطاقات ومواهب، لم يتحلّ بها أيّ كائن آخر كالحيوان والنبات والشمس والقمر وغيرها. يكتب سفر التكوين قائلاً : "فخلق الله الإنسان على صورته على صورة الله خلقه..." (سفر التكوين 1/ 27).

أما الدافع الكامن إلى هذا الخلق فهو حبّ الله للإنسان. فأراد الله أن يكون الإنسان شريكاً له في الخلق وفي الحبّ. شريكاً في الخلق من أجل أن يكمّل هذه الخليقة ويطوّرها مدى الأجيال، وشريكاً في الحبّ بإقامة علاقة محبّة وصداقة قوية متينة، دائمة ومتواصلة.

ولكنّ ما حدث هو إن الإنسان، بحريته، رفض هذا الحبّ، وبالتالي انفصل عن الله وقطع علاقته معه، فكان الموت!

إلا أن الله استمر، مع ذلك، في مناشدته للإنسان، عبر الأنبياء، الذين أرسلهم إليه، لإعادته إلى هذه الشركة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، أخذ زمام المبادرة إلى خلاصه وتحريره، إن شاء هو وانضمّ إلى الله وإلى مشروعه الخلاصي.

يسوع المسيح ومشروع الله:

إلا أن الإنسان غالباً ما لم يستجب لهذا المشروع الخلاصي، ممّا تطلّب تدخلاً قوياً وعملاً حاسماً تمثّل بتجسّد يسوع المسيح.

إن التجسّد يعني أن يسوع المسيح صار عضواً في البشرية، عضواً في شعب، خاضعاً لظروفنا الإنسانية بما تتضمّنه من حبّ وألم وأمل ويأس ومرض وموت, وإلى حدّ شعور يسوع المسيح، وهو على الصليب، بتخلّي الله عنه: "إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟". تلك كانت صرخة يسوع على الصليب.

وإذ اضطلع يسوع بهذا الظرف الإنساني بقوة وعمق وكثافة، فإنما من أجل الإنسان ومن أجل حبّه للإنسان ذلك إن الإنسان يمثّل في نظر الله وتفكيره، قيمة عليا لا تُضاهى.

وقد توخّى يسوع من هذا التجسّد تحقيق إنسانية الإنسان كاملةً، فيكون الإنسان إنساناً بتحريره من كلّ ما من شأنه أن يستعبده، كالخطيئة والشريعة والبنى السائدة، سواء كانت اجتماعية أو اقتصادية أو دينية. وليكون الإنسان كاملاً بإضفاء البُعد الإنساني. صحيح إن القيم التي تحدّث عنها يسوع المسيح

كانت موجودة في زمان يسوع وفي كلّ زمان ومكان، إلا أن الجديد، عند يسوع، هو إنه أضفى على هذه القيم بُعداً إلهياً.

من هنا جاءت دعوة المسيح إلى الإنسان للتشبّه بالله، في ما يخصّ قيم الحبّ والسلام والحنان والرحمة. وهكذا يكون المسيحي هذا الإنسان الكامل، شأن المسيح الكامل.

لاشكّ أن هذا العمل الذي قام به يسوع المسيح ليس بمعزل عن البشرى، بل هو، على النقيض من ذلك، في صلب هذه البشرى، ولاسيّما البشرى بملكوت الله على هذه الأرض حيث يتم تحديد موقعه على هذا الصعيد.

وحينما شرع يسوع في إعلان هذا الملكوت، دعا الناس في زمانه، كما في كلّ زمان ومكان إلى الدخول فيه، عبر التوبة والإيمان والولادة الجديدة، كي يمسوا أناساً جدداً، مدعوّين إلى بناء إنسان جديد وعالم جديد مبني على المبادئ والقيم الإنسانية– الإلهية ويكون خالياً من المرض والخطيئة والألم.

من هنا جاءت بعض الأعمال الرمزية التي قام بها يسوع، لتدلّ على مجيء هذا الإنسان وهذا العالم الجديد في عالمنا، كشفاء بعض المرضى وغفران الخطايا وإقامة بعض الموتى وغير ذلك.

المسيحي ومشروع الله:

لئن كان يسوع قد حقق مشروع الله ونجح في تحقيقه، من حيث المبدأ، عبر أقواله وأفعاله وأعماله وأحداث حياته، إلا أن أمر تحقيقه الفعلي والكامل يبقى رهناً بمدى قبول الإنسان هذا المشروع، وبالتالي بمدى إسهامه ومشاركته الفعلية في بناء ذاته، وذلك بملء حريته وإرادته، لئلا يكون ناقصاً إن لم نقل فاشلاً.

وفيما رفض البعض هذا المشروع في زمانه، قبله آخرون وبالتالي أسهموا في تحقيقه.

وما يصحّ بالنسبة إلى هؤلاء، يصحّ كذلك بالنسبة إلينا، نحن معشر المسيحيين اليوم وفي كلّ زمان ومكان، علينا أن نفكر أولاً وآخراً في الإنسان: بل أن يضحي محور تفكيرنا، وهدفاً لكلّ من أنشطتنا، سعياً وراء خلاصه وتحريره، ووراء وبنائه وإغنائه وامتلائه بكلّ المبادئ والحقائق والقيم، كي يُمسي الإنسان إنساناً كاملاً، كما يريده الله.

وفي سبيل تحقيق هذا الهدف، علينا أن نستخدم كلّ الوسائل والسبل المتاحة والمتوفرة لدينا كالتربية والتثقيف والإعلام. وقد تأتي كلمة الله في مقدّمة هذه الوسائل والسبل التي علينا أن نستخدمها، وصولاً إلى الهدف، وهو البلوغ إلى الإنسان الكامل.

* *

الفهرست

يسوع المسيح شاهد وشهيد ٦
الإيمان بيسوع المسيح ماذا يعني؟ ١٤
المسيح رجل انفتاح ١٨
المسيح رجل صلاة ٢٥
يسوع المسيح في نظر الرسل والجماعة
المسيحية الأولى ٣٢
يسوع الإنسان ٤٢
يسوع المسيح بشرى الله إلى العالم ٤٩
المسيح رجل الحوار ٥٨
إله يسوع المسيح ٦٥
في مدرسة يسوع ٧٢
كيف نشهد ليسوع المسيح اليوم؟ ٧٩
يسوع المسيح تحرير وخلاص ٨٦
المسيح هو نحن جميعاً ٩٢
يسوع المسيح هذا الإنسان الشامل ٩٩
هل له من مثيل؟ ١٠٥
من مثل الله؟ ١١١
طريق يسوع المسيح ١١٥
يسوع المسيح ومشروع الله ١١٨